روايات احلام

قصر في العاصفة

www.elromancia.com

مرمورية

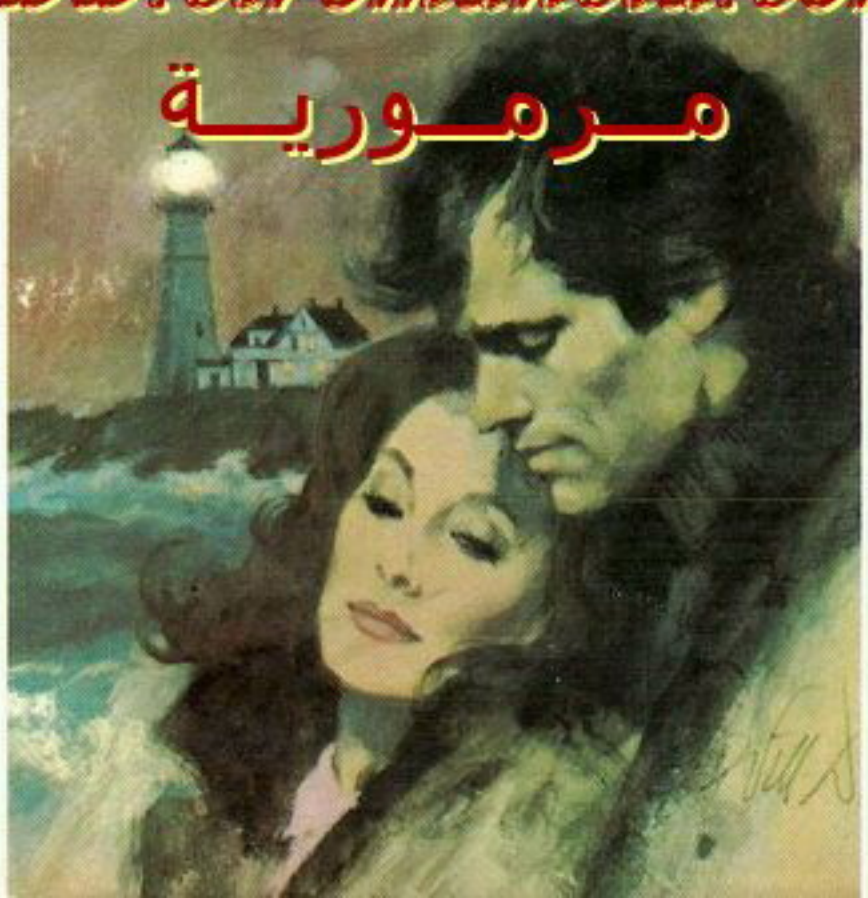

قصر في العاصفة

يقولون إن الصاعقة لا تضرب المكان نفسه مرتين، فكيف حصل ذلك لجاي؟

أتت توصل طفلي صديقتها إلى مزرعة خالهما في انكلترا وترحل... ولكنها وجدت نفسها محتجزة...

اعتبرها لايل غاونت نذير شؤم يجلب الكوارث بينما هو من أوقع قلبها في المشاكل... وشعرت كأنها فراشة خرجت لتوّها من الشرنقة الآمنة، تتوقع دفء الشمس ولكنها تواجه البرد والرياح القاسية...

تمنت جاي لو تطير بعيداً عن لايل وعن اتهاماته، لكن عندما تسقط جدران الشرنقة تصبح العودة مستحيلة... والأجنحة الهشّة ترفرف عبثاً ضد العاصفة، حتى تقع في الشرك...

١ـ الصاعقة تضرب مرتين

«ما كانت النيران لتصل إلى هذا الحد لو لم أضيّع وقتي في إنقاذك وإنقاذ الأولاد».

حتى ولو سلّمنا بأن ميراثه الذي آل إليه حديثاً، قد أكلته النار بأجمعه، إلا أن ذلك لا يجيز له التفوّه بمثل هذه الأقوال الجهنمية المتوحشة، ولكن هكذا هو «لايل غاونت».. كان هذا ما فكرت فيه جاي غاضبة.

ردت عليه بغضب: «إن دفعك لي أنا والأولاد على السلم ومن المطبخ إلى الفناء الخارجي الشديد البرودة، لا يسمى إنقاذاً».

رفعت يدها دون وعي تمسّد كتفها التي ما زالت تؤلمها منذ هزها بعنف ليوقظها من النوم، صارخاً:

ـ جاي، استيقظي.. المنزل يحترق يا جاي.

ثم سحبها بوحشية من نومها العميق.

عندما فتحت عينيها، وأخذت تنظر إلى الوجه الذي كان منحنياً عليها دون أن تفهم شيئاً، تركت يده كتفها، وأمسك بأغطية السرير وجذبها من فوقها بسرعة.

ـ قلت لك انهضي.

ودون أن ينتظر طاعتها، انحنى يرفعها من إبطيها، وأخرجها من السرير.

ـ البسي شيئاً.

أوقفها على قدميها ثم أخذ ينظر إلى قميص نومها القصير المنزلق عن

كتفها. كان هذا كل ما تحتاج إلى لبسه في بلاد الخليج.. التهب وجهها وهي تتذكر أنها لم تسمع طرقاً على بابها حين دخل، ولكن قبل أن تعبّر عن سخطها بالكلمات، ارتد على عقبيه وأسرع إلى غرفة أصغر فيها الولدان النائمان.

قال لجاي من فوق كتفه: «سألفّ الولدين بالبطانيات، أما أنت فالبسي».

اضطر لرفع صوته فوق صوت الرعد المصحوب ببرق راح يتلاعب في الأجواء كأفاع شيطانية. شعرت جاي بمدى عمق نومها، فقد منعها من سماع كل هذا، كما منعها من سماع نقر لايل على الباب... ولكن هل قرع الباب حقاً؟ فهي تشك في ذلك. عندما توقف الرعد لحظة سمعت طقطقة خفيفة اقشعر لها جسمها.. تتابعت القرقعة وقويت مقتربة منها ولكنها استطاعت العثور على ملابسها على ضوء البرق.. ارتدت بسرعة بنطلون جينز، وعندما أخذت ترتدي كنزتها، ظهر لايل عند الباب. كان الذعر قد تملكها الآن تماماً، لا بد أنه استعمل طريقة أرق مع الطفلين. فما زالت هولي ابنة الخامسة من العمر نائمة، أما تيم الذي يكبرها بسنتين فقد كان ملفوفاً كأخته ببطانية ولكنه كان مستيقظاً تماماً، وعيناه متسعتين باديتي اللهفة إزاء هذا الحدث الجديد في حياته، وهو الهرب من بيت يحترق.

ـ أسرعوا بالخروج من البيت بأسرع ما يمكنكم.

كانت جاي تلبس كنزتها، ولكن لايل أخذ يدفعهم إلى الخارج من باب المطبخ بعدما وضع الطفلة النائمة بين ذراعيها.

ـ ليس من هذا الاتجاه.

ثم أمسك بكتفيها يدفعها في الإتجاه الآخر.

ـ المخزن غير آمن. قد تقذف الريح الشرر إليه.. اتجهي نحو المطحنة فهناك ستكونون آمنين.

فكرت جاي في أنهم سيأمنون حقاً شر النيران، ولكنهم سيتعرضون لالتهاب رئوي، فها هي ترتجف تحت وطأة الريح القارسة.. لقد اعتادت حرارة جوّ الصحراء في الشهور الماضية.

عندما رأت لايل يعود إلى الداخل، صرخت فيه:

ـ ماذا بالنسبة إليك. لا يمكنك العودة إلى هناك، إنه غير آمن لك أنت أيضاً.

ـ سأتصل بفرقة المطافىء، فالريح تتجه إلى القسم القديم من المنزل.

ولكن النار كانت تسرع في ذلك الاتجاه بشكل مخيف. ارتجفت جاي لمرآها.. لقد تأخر لايل في الاتصال بفرقة المطافئ مفضلاً إنقاذها والطفلين أولاً، وهوذا الآن يلومها لهذا التأخير.

تقدم نحوهم رجل إطفاء ضخم الجسم:

ـ النيران تحت السيطرة الآن، يا سيد غاونت. بإمكانك الآن أن تعود مع الأسرة إلى المنزل. إنما يستحسن النوم في الطابق السفلي بقية الليلة، إذ قد تعود النيران فتشتعل مرة أخرى. فهذا ما يحدث في مثل هذه الأبنية القديمة خصوصاً أثناء مثل هذه الرياح... حسناً، لا تغفل عن تفقد أنحاء البيت حتى يطلع النهار، رغم أنه يبدو أن العاصفة انتهت... من سوء الحظ أن تضرب الصاعقة المنزل. إن هذا نادر جداً، فالمفروض أن تضرب المطحنة أولاً، لأنها مبنية على أرض أكثر ارتفاعاً. على كل حال، يقولون إن الصاعقة لا تضرب نفس المكان مرتين.. إن في هذا تعزية لكم.

لكن جاي لم تر أية تعزية في ظروفها التعسة هذه فيكفي أن لايل رفض عندما طلبت منه في اليوم السابق تحمل مسؤولية ولدي أخته.. وها هو الآن يوضح أن قدومها معهما كان نحساً عليه. لقد أخره إنقاذهم عن الاتصال بالمطافئ ولهذا تمكنت النيران من السريان..

قالت له عندما ابتعد رجل الإطفاء:

ـ لست مسؤولة عن عوامل الجوّ.. سأدخل الطفلين إلى المنزل من هذا البرد.

ـ سأتأكد أولاً من أنه آمن.

قالت بإصرار:

ـ قال رجل الإطفاء أنه آمن إذا بقينا في الطابق الأسفل.. سأرقد هولي

على أريكة المطبخ، أما تيم فسأضعه على المقعد الكبير قرب النافذة.

كان الطفل النائم ثقيلاً بين ذراعيها، لكنه ليس بثقل مسؤوليتها تجاه ولدي امرأة أخرى... فللمرة الأولى منذ قبلت اصطحاب الولدين إلى إنكلترا لتسلمهما لخالهما تشعر بثقل هذا العبء على كتفيها.

- سأحمل أنا هولي.

أترى الإرهاق بان في صوتها، أم أن لايل خاف أن تنزلق قدماها المتجمدتان برداً في الوحل؟ أخذت جاي تتساءل ساخرة، لكنها وضعت الطفلة بين ذراعيه شاكرة.

- ابقي في المطبخ، ولا تحاولي الصعود إلى غرفتك.. إياك الصعود مهما كان السبب.

كان لايل يحذرها وهو يمدد الطفلة على الأريكة برفق. بينما لم تحمل لهجته وهو يحدث جاي أي لطف. كان ينظر إليها منتقداً إصرارها على إدخال الأطفال قبل أن يقوم بجولة ليتحقق بنفسه من قول رجل المطافئ.

ابتدأت تقول مدافعة عن نفسها: «قال رجل المطافئ...»

- حتى رجل المطافئ قد يخطىء.

قالت بحدة مستاءة من لهجته المعنّفة: «أما أنت فلا يمكن أن تخطىء».

- أريد أن أتأكد أكثر.

- اذهب إذن وتأكد.

قالت ذلك بفروغ صبر، ثم أدارت ظهرها إليه ومضت تغطي تيم بالبطانية ويداها ترتجفان. لأمرٍ ما، لم تعد تحتمل نظراته الباردة التي تماثل بقسوتها الريح القارسة في الخارج والتي تتعارض بشكل غريب مع لون عينيه الكهرماني الدافئ.

وجدت من السهل عليها أن تتحداه وظهرها إليه، فقالت:

- سأبقى مع الطفلين لأنني أريدهما أن يكونا بعافية عندما يعود والداهما أندرو وبيث إلى إنكلترا مع المولود الجديد.. لا أريد أن أقول لأمهما إنهما في المستشفى يعانيان من التهاب رئوي.. تعرف أنهما معتادان على جوّ الخليج.

ورياح آذار في انكلترا ضارة للغاية إن لم تأخذ الحيطة والحذر.

قال لايل بلهجة ممطوطة:

- ستجدين صعوبة أكبر في أن تشرحي لهما عذرك إذا تأذى الطفلان بالنار بسبب عدم حذرك.

رفعت جاي رأسها بحدة، شاحبة الوجه: «أنا لست..»

لكنها وجدت نفسها تتحدث إلى الهواء، وذهب لايل مرتدياً على عقبيه بخفة وخرج في الوقت الذي كانت ترفع فيه رأسها لتتكلم.. لمحت رأسه بلون شعره البني الأحمر، يمر بجانب نافذة المطبخ. كان ذلك للحظة خاطفة، عاد بعدها السكون يخيّم على حديقة المطبخ الخالية.. وفي هذا الظلام البارد، سمعت صوت مصراع البوابة يغلق أثناء خروجه منها، بينما أخذ صوت لايل يتكلم يجيبه صوت آخر تكهنت جاي بأنه صوت أحد المزارعين. ثم ساد السكون، حتى طقطقة النيران المخيفة توقفت.. أخذت تصغي متوترة فإذا الصمت أكثر وحشة وبعثاً للخوف من الصوت.

نادت الصبي راجية أن يكون مستيقظاً: «تيم؟»

لكن الصبي حذا حذو أخته فاستغرق في نوم عميق، هكذا بقيت جاي وحدها، شاعرة بوحشة لم تعرفها في حياتها قط.

- سأعيد الطفلين معي إلى إنكلترا.

حينذاك بدا هذا الحل بالغ السهولة. التوت شفتاها الآن بمرارة ساخرة وهي تتذكر وعدها المرح ذاك للأم الشاردة الذهن.

وقتذاك هتفت صديقتها بأمل:

- آه يا جاي! أحقاً ستفعلين ذلك؟ أندرو مشغول في مفاوضات البترول تلك، ولا يمكنني إبعاده عنها. لماذا اختار الولد هذا الوقت ليظهر إلى الوجود؟ لا أكاد أصدق أن موعد ولادتي بعد شهر ونصف.

قالت جاي مازحة: وما أدراك بأنه ولد؟

- لا بد أنه ولد ما دام قادراً على التسبب بكل هذه الفوضى.

إذا صدقت نبوءة صديقتها، فالولد سيأتي صورة عن خاله.. هذا ما

أخذت جاي تحدث به نفسها.. ولكن جاي لم تتوقع أن يستقبلها خال الطفلين بهذا الجفاء وعدم الترحيب ولم تقل بيث عن أخيها ما يحذرها من أن تنتظر منه شيئاً غير الترحيب القلبي.

أخبرتها بيث بثقة:

- كان لايل يقول دوماً إن بإمكاني إرسال الولدين إليه عند الضرورة.. لقد استلم لتوّه المنزل «ميلبول هال»، وأظنه يحاول فرز مساحة من الأراضي لإقامة حلبة للسباق هناك، ومع ذلك أعلم أنه لا يمانع في استضافة الطفلين لعدة أسابيع، إلى أن أحضر أنا وأندرو والطفل الجديد، إلى الوطن.

قالت لها جاي بمرح:

- اذهبي لولادة طفلك، واتركي لي الطفلين. بعدما ننزل في لندن سأقوم برحلة طويلة إلى بلدتي في «تشتشر»، لذا لن يكون منزل أخيك بعيداً عني. ما شكل أملاكه التي ورثها؟

أجابت بيث: «لم أرها قط، بل لم يرها لايل قبل أن يرثها، إنها قصة قديمة. كان أبي وأخوه «كينثن» قد عشقا نفس الفتاة. وقد فاز أبي بها.. أخذ والداي طوال سنوات يحاولان إعادة الصلات مع عمي، لكن مرارة حبه الفاشل كانت عميقة، لذا رفض كل محاولاتهما للسلام معه، حتى أنه رفض التعرف إلى لايل رغم أنه وريثه الوحيد. ربما خاف أن يكون لايل شبيهاً بأمه.. لعله لم يحتمل رؤيته وإحياء ذكرياته المؤلمة».

- ألم يتزوج عمك وينجب وريثاً؟

- لم يشأ قط الزواج بغير أمي، وهكذا بقي عازباً دافناً نفسه في إدارة ضيعته. منذ أسابيع وبعدما انتقل لايل إلى منزله الذي ورثه اتصل بي هاتفياً وأخبرني أن عمي نجح في إنشاء قطيع ممتاز من المواشي الأصيلة. ومن المؤسف حقاً أن عمي لم يسمح للايل بأن يرى القطيع.. إنه خبير بالماشية.

- هل يحسن أخوك إدارة المزرعة أيضاً؟

- لقد تربى على إدارة المزرعة عندما تأكدنا من عدم رغبة عمي في الزواج، ولحسن الحظ كانت الزراعة تتلاءم مع ميول أخي.. عندما تخرج

من كلية الزراعة، عمل مديراً لمزرعة كبرى في الجنوب لاكتساب الخبرة.

قد لا يهتم أخوك بإرثه الآن بعد رؤيته وقد يفضل بيعه، والعودة إلى وظيفته القديمة، بدل من أن يشغل نفسه بمزرعة مسمّمة بخيبة الأمل والمرارة على مرّ السنين..

ولكن بيث هزت رأسها:

- ليس لايل من يفعل هذا، إن مزرعة «ميلبول هال» في دمه.. إنه يعشقها.. فقد وقع في حبها من كثرة القصص التي كان والدنا يحدثنا عنها في طفولتنا. لقد عاش آل غاونت هناك منذ مئات السنين. وإذا لحق الإهمال بها منذ أصيب عمنا بالسكتة الدماغية، فإن لايل سيصلح كل شيء.. فهي تشكّل تحدياً له.

فكرت جاي أن لايل غاونت ليس بالرجل الذي يرفض التحدّي. رغم أنه لم يقبل استلام ولدين يتدفقان حيوية وأبدى كراهيته لذلك دون تردد وهي تشرح له مهمتها.

قال بخشونة: «لا فائدة من إحضارهما إذ لا يمكنني استضافتهما، أو استضافتك».

- لا أريدك أن تستضيفني.

أرادت الخلاص من هذا الرجل الكريه بأسرع ما يمكن، ولكنها تعجبت من الفرق بين الأخ وأخته في الطباع. فقد كانت بيث بالغة المودة والرقة.

قالت بإصرار: «عليك أن تأخذ الطفلين إنهما مسؤوليتك أنت وليس أنا».

كانت جاي معتدلة الطول، ومع ذلك كان عليها أن ترفع رأسها لترى وجهه.. كان شعرها الأسود الكث يحيط بملامحها البديعة البالغة الحيوية، وهذا ما جعله أكثر تأثيراً. ووجهها الذي تنيره عينان بنفسجيتان سوداء الأهداب بدا فيهما التصميم وهي تواجه مسؤولية الوصاية المؤقتة غير المرغوب فيها.

عاد يقول بحدة: «لا يمكنني رعاية طفلين صغيرين. إننا في موسم ولادة النعاج.. في أكثر أوقات السنة ازدحاماً بالعمل، كما أنه ليس هناك من يرعاهما».

فردت عليه بمثل حدته:

ـ المرأة التي أخذتهما الآن معها إلى المطبخ قادرة على ذلك.

لقد وفت بوعدها لبيث بتسليم ولديها إلى خالهما. ورغم حبها لهما، لا تريد أن يحمّلها الخال المستبد مزيداً من الأعباء. لو أن لايل طلب منها البقاء إلى حين تدبير أمر الطفلين، لقبلت البقاء يوماً أو يومين، ولكنهما ذهبا مع المرأة المدعوة مارتا سعيدين، وهذا دليل على أنهما لا يحتاجان لبقائها في هذا البيت.

قالت له بحزم: «لقد وفيت بوعدي لأختك بإحضار الطفلين إلى هنا، وعليك الآن الوفاء بوعدك بقبولهما عندك».

رفض قائلاً: «هذا مستحيل تماماً.. مارتا لا تعيش في البيت. إنها تأتي نهاراً فقط، وأنا أعزب وغالباً ما أغيب في الليالي».

يعني بهذا أن الولدين سيبقيان بمفردهما في المنزل أثناء غيابه، وأي أذى قد يصيبهما نتيجة لهذا ستشعر بأنهما الملامة.. كان هذا ابتزازاً أخلاقياً. وكم أغضبها ذلك..

قالت له بحدة: «أين تغيب في الليالي؟».

سألته هذا السؤال لأنها لم تر أي ملهى خلال مرورها في القرية. كنيسة، مقهى، وبعض الأكواخ... ويبدو أن هذه قرية مبلفورد، وإذا كان على لايل التماس المتعة بعد انتهاء عمله اليومي، فليؤجل ذلك أسبوعاً أو أكثر إكراماً لأخته. وهكذا ألقت عليه هذا السؤال رغم علمها أنه ليس من شؤونها.

ـ في حظائر الأغنام، لحضور ولادة النعاج.

قال ذلك رغم أن لهجته دلت على أن ذلك ليس من شؤونها.. احمر وجه جاي ولكنها قالت بحدة: «يمكنك، بالتأكيد، أن تدع ذلك لأحد

مساعديك. وعلى كل حال.. قالت أختك إن عمك كان يعنى بالأبقار وتأصيلها، لكنها لم تقل شيئاً عن الأغنام».

حينما رأت قطعان البقر من نافذة التاكسي قالت لتيم مازحة: «ألوانها لا تتلاءم مع لون المنزل».

كان لون المنزل الجميل عسلياً كالذهب، وهذا ما فاجأها وبعث السرور في نفسها، لكن سرورها تلاشى عند مقابلتها مالكه الجديد. كان لونه هو الذي يتلاءم مع البيت تقريباً، وليس البقر، ولكنه آثار أعصابها.

قال: «المزرعة تحتوي على خليط منها».

لكن ليس بقدر اختلاط مشاعرها، كما أدركت جاي بذعر فجائي. كم تمنت لو يحول نظراته عنها، فعيناه تجذبان عينيها وتسمرانهما كالمغناطيس.

تأملت لونهما العسلي القاتم، وتساءلت عما إذا كانتا دافئتين عند الابتسام كعيني شقيقته بيث. كانت أعينهما متماثلة تقريباً في الشكل. لكن التشابه ينتهي هنا.. فبيث كثيرة الابتسام، وابتساماتها تنطق بالمودة والدعوة إلى التقارب، بينما يبدو لايل نادر الابتسام، فهو لم يبتسم لجاي منذ تقابلا، وطباعه الانطوائية رفضت أي رغبة في التقارب حتى مع ابني أخته. ما لبثت جاي أن تركت جانباً تساؤلها الفضولي عما يمكن أن يكون عليه تقاربها من لايل غاونت، محدثة نفسها بأن العم الراحل كينتن لم يخسر شيئاً برفضه مقابلة وريثه.. لقد أحبت بيث، ولكنها لم تحب أخاها قط.. فلماذا تثير نظراته خفقان قلبها، وتسارع أنفاسها؟ سحبت نفساً عميقاً محاولة تهدئتهما.

حاولت التخفيف من جيشان مشاعرها بالإيحاء إلى نفسها بأن هذا من تأثير اختلاف الجوّ هنا عنه في الخليج، ذلك أنها خافت أن تؤثر مشاعرها في عقلانية تفكيرها الذي هي بأشد الحاجة إليه.. ترى لماذا لم تؤثر برودة جو الربيع هنا على الولدين بينما أثرت فيها؟

حاولت أن تتجاوز ضاحكة ردة فعلها غير المتوقعة نحو صاحب البيت.. لقد قابلت رجالاً وسيمين ولكنها لم تشعر بأن لأحد منهم مثل هذا

التأثير فيها. . لايل رجل من الشمال طويل، نحتت جسمه الأجواء الخشنة فبدا أقرب إلى الكمال، كما لوحت الريح والمطر وجهه، كما تلوحها الشمس. ولايل يحمي عزلته وكأنه يجعل جسراً متحركاً بينهما. أخذت تفكر بذلك ساخرة، ثم أسكتت، غاضبة، صوتاً في داخلها يتساءل عما سيكون عليه الحال لو أنها عبرت ذلك الجسر إليه في الطرف الآخر؟

لدى لايل غاونت تأثير كبير فيها. . وراح الصوت يصر في داخلها على القول بأن عليها إما أن تحبه وإما أن تكرهه.

لكنها حدثت نفسها بذعر بأن هذا جنون، فهي لم تعرف هذا الرجل إلا منذ نصف ساعة قضياها بالتخاصم. . لكنها لم تستطع أن تنكر أن لايل شغل بالها. . حدثت نفسها بفزع أن هذا سبب قوي يجعلها تترك له الطفلين وتهرب من هذا المنزل بأسرع وقت ممكن.

ـ بإمكان الطفلين أن يبقيا هنا فقط إذا أنت بقيت معهما.

نظرت إليه جاي ذاهلة. هذا وضع مستحيل، ولايل رجل صعب! وكأنه قرأ أفكارها، تحرك بسرعة لكي يتغلب على أية خطة قد وضعتها للذهاب. ولكن أن تبقى في هذا المنزل، أن تراه يومياً، فهو ما لا ينبغي لها وما لا تجرؤ على القيام به، ما دامت خفقات قلبها تتسارع. إنه يقرع في عنقها وأذنيها محذراً، سالباً إياها القدرة على الكلام. . ابتلعت ريقها بصمت، فحلقها بجفاف الصحراء التي تركتها لتوها.

قال بفروغ صبر:

ـ لن يستغرق العمل أكثر من ثلاثة أو أربعة أسابيع على الأكثر، ويصبح بإمكان المواشي الصغيرة أن تعيل نفسها.

قالت بحرارة: «تيم وهولي لا يمكنهما إعالة نفسيهما. لكنك تهتم بالخراف أكثر مما تهتم بلحمك ودمك. . على كل حال، بعد أربعة أسابيع يكون بيث وأندرو عادا إلى الوطن، فيستلمان ولديهما. عند ذلك يكون الوقت فات، إذ لن يكونوا بحاجة إلى عونك».

فكرت جاي في أن الوقت يكون قد فات بالنسبة إليها هي أيضاً، فلن

تعود فتاة خلية البال كعهدها. رغم جمالها وعملها الذي يتطلب منها الاختلاط بالرجال، ورغم كثرة المعجبين، ما زال قلبها خالياً لم يُمسّ.

لم تتصور قط أن يستيقظ قلبها بهذا الشكل، شعرت بنفسها كفراشة خرجت لتوها من الشرنقة حيث الأمان والهجوع. إنما ليس إلى ما توقعت من دفء أشعة الشمس، ولكن إلى البرد والرياح القارسة. تمنت لو تعود إلى الشرنقة، أو تطير بعيداً عن لايل غاونت ومنزله العتيق. لكن عندما تسقط جدران الشرنقة الآمنة، لن يكون هناك عودة إليها. والأجنحة الهشة الرقيقة ترفرف عبثاً ضد العاصفة، فتقع في شرك لا تدري عنه شيئاً.

ـ إذا كنت قلقة بشأن راتبك، فسأدفع لك المبلغ الذي اتفقت عليه مع بيث.

ـ راتب؟ اتفقت عليه؟ ما هذا الذي تتحدث عنه؟

قال بخشونة: «أنت قبلت بشروط بيث عندما استأجرتك لرعاية طفليها. الأمر راجع إليك الآن لتتابعي العمل الذي ارتبطت به».

فهتفت غاضبة: «أتظنني مربية أو خادمة أطفال؟ وهل أبدو كذلك؟ لم تستأجرني بيث، ولم آخذ أجراً على إحضار الطفلين إلى انكلترا».

ـ كيف إذن. . . ؟

ـ لقد أصبحت صديقة لأختك وزوجها أثناء وجودي في الخليج. . . وليس مربية. عندما واجهت بيث الصعوبات، عرضت عليها إعادة الطفلين معي، لكي أساعدها فقط.

ـ هل أنت من ضمن موظفي بيث في الشركة؟

ـ لا. لست كذلك. . ذهبت إلى الخليج لبيع زجاج النوافذ الملوّن.

عند وصولها إلى هذا المنزل، لاحظت تألق زجاج ملون في نافذة جانبية منه. فخطر في بالها أن تسأل شقيق بيث قبل أن تغادر إذا كان بإمكانها أن تتفحصه بإمعان. فقد تكون تلك صورة دروع آل غاونت.

لكنها تكهنت الآن بأنها لا بد صورة أسد غاضب يقف على قائمتيه الخلفيتين، فإن لصاحب البيت هذا نفس ألوانه وكذلك طبيعته المتوحشة.

www.elromancia.com

لوت شفتيها ساخرة، فقال بحدة: «لا تسخري».

رأت من توتر ملامحه أنه ظنها تسخر منه في ذكر سبب كهذا دفعها للسفر إلى الخليج.. لكنها حدثت نفسها بتمرد أن تدعه يظن كما يشاء. لم يعد يهمها ما يظنه لايل.

- أحضرت الولدين إلى إنكلترا معي لأساعد أختك ليس إلا.

- لا يمكن أن يمرّ عمل جيد دون مكافأة.

قال ذلك وعيناه ملتهبتان ولكنه لم يكن يبتسم كما أنها لم تجد الوقت لتفهم ما القصد من وراء كلماته هذه.. فقد اجتاز المسافة الفاصلة بينهما ورفع ذقنها بأصابع يده ثم بالأخرى أمسك بخصرها وشدّها إليه.. ثم.. ثم أحنى رأسه يعانقها.. فارتجفت من صدمة من نوع آخر.

فكرت: «لقد اعتقدني أسخر منه عندما قلت له إنني أبيع الزجاج الملون، فكانت هذه طريقته لمعاقبتي..». كان يعانقها بقسوة ويمسك بخصرها بإحكام ليحتجزها هناك بين ذراعيه..

كانت لحظات لا نهاية لها ولكنها استطاعت أخيراً أن تنتزع نفسها من هذه الصدمة فقالت: لا!

كانت خفقات قلبها تتسارع، وقد سرى في جسمها ما يشبه تيار كهربائي، وشعرت بتجاوب غريزي معه، وبالحنين إلى وضع قدمها على الجسر المتحرك الذي يفصل بينهما. حتى عندما أشاح بوجهه عنها، تاركاً إياها معلقة بين اليأس وعدم الثقة.

- لا!

مدت يديها تدفعه عنها لتحطم هذه المغناطيسية المنبثقة عنه وغير القابلة للتحطم، ولم يكن ثمة جدوى من قوتها إزاء قوة ذراعيه. وعندما أخذت تقاومه، أبعدها عنه وما زال ممسكاً بها.

همست ثائرة: «دعني».

لكن يديه بقيتا ممسكتين بها بعيداً عنه. أتراه أحس بأنها ستسقط إن لم يسندها، إذ لم تكن ساقاها المرتجفتان قادرتين على حملها.

عادت تتوسل إليه: «دعني».

ما زالت عيناه العسليتان تحدقان في عينيها، وما زالت يداه تمسكان بها، ولكن لون عينيها البنفسجي أصبح داكناً بسبب اضطراب مشاعرها.. هذه المشاعر التي لم تكن تعرف بوجودها في أعماقها حتى أثارها فيها لايل غاونت، ثم تركها تواجه النتيجة دون اكتراث منه.

- الطعام جاهز على المائدة يا سيد غاونت، هل ستأكل مع الآنسة بارون والطفلين؟

أنزل لايل يديه عن كتفي جاي، وارتدّ إلى مارتا التي كانت واقفة في باب المطبخ.

- ربما، فهذا يوفر الوقت.

همست جاي غاضبة:

- كان عليك على الأقل أن تظهر شيئاً من الترحيب بنا أمام مدبرة منزلك.

أوقف الغضب ارتجاف قدميها فاستطاعت التوجه إلى المائدة كما استطاعت أن تجيب بصوت شبه عادي عندما قالت لها مارتا: «لا بد أنك تريدين كوب شاي بعد رحلتك الطويلة».

- مرحباً بالشاي.

ومرحباً بالطعام.. فهذا ما كان عليه شعورها عندما رأت الطعام.. ولكنها فكرت في أن الجوع هو الذي جعلها واهنة القوى. فلو تناولت شيئاً من الطعام اليوم لاستطاعت السيطرة على مشاعرها عندما عانقها لايل..

قالت لها مارتا:

- سأرعى أنا الطفلين في هذا الوقت، كلي طعامك بسلام.

لكن هذا العمل الطيب كان له مفعول عكسي، إذ أصبحت جاي هدفاً لنظرات لايل كلما رفعها عن صحنه.

- لحم؟

- شكراً.

www.elromancia.com

لم تكن تتوقع من شقيق بيث أي صحبة سارة بل أدباً بارداً. لكنه أخذ يقدم لها أنواع الطعام بسخاء، هذا بينما يتابع النظر إليها بعينين خاليتين من الحرارة. كانت عيناها تشتبكان بعينيه في كل مرة ترفع فيها بصرها إليه، وكأن ثمة مغناطيساً يجذبهما. تملكها اليأس لذا أرغمت نفسها على النظر حولها، فأي شيء أفضل من النظر إليه. راحت عيناها تتأملان المطبخ وما فيه من أثاث متقشف.

قالت مارتا وقد أخطأت فهم نظراتها:

ـ لم يجد السيد لايل الوقت لإحداث أي تغيير.. فالسيد كينتين أمضى أغلب أوقاته في المزرعة ولم يكن يهتم بالمنزل ما دامت وجبات طعامه منتظمة ولأنه لم يستضف أحداً بقيت الغرف مقفلة.

ـ إنه منزل رجل أعزب...

فكرت جاي في أن وصف لايل يختصر المسألة برمتها.. وفجأة شعرت بعطف مفاجئ نحو مالك المنزل الجديد التعس. كان المطبخ خالياً من أية لمسة بيتية تكشف عن وجود امرأة في المنزل، وثمة كرسي بذراعين بجانب المدفأة الكبيرة، ولم يكن هناك حتى بساط يغطي الأرض الحجرية.

خفق قلب جاي ألماً وهي تتساءل متى يصبح كرسي آخر بجانب المدفأة، بعد أن ورث لايل البيت هذا؟ حاولت أن تتصور الجالسة على تلك الكرسي. هل ستكون شقراء، صغيرة الجسم؟

هزت رأسها دون وعي، فالمرأة الشبيهة بالهرة لا تصلح زوجة مزارع مناسبة، رغم أن ربة منزل كهذا لا تحتاج إلى أكثر من الإشراف على إدارة المنزل، إذ سيكون لديها مدبرة منزل مقيمة تعفيها حتى من هذا.. وقد تكون الجالسة على الكرسي الآخر امرأة طويلة مهيبة قادرة، مثل لايل، على إدارة المزرعة. لكن جاي رفضت هذه الفكرة أيضاً، فلايل بالغ الرجولة، ما يجعله لا يقبل امرأة مسترجلة رفيقة له.

حدثها صوت داخلي بأنه سيختار امرأة تمجد أنوثتها، فلا شك أنه يريد امرأة كاملة الأنوثة، غير اتكالية. امرأة تتلاءم معه عقلياً، امرأة هي...

وشعرت جاي بحسد بالغ لتلك المرأة المجهولة وأملت ألا تقابلها أثناء وجودها في هذا المنزل إذ لن تستطيع احتمال ذلك... ولكنها لم تجرؤ على الاعتراف بالسبب الذي يجعلها تجفل من لقاء كهذا.

ـ إذا كنت أنهيت طعامك، فستريك مارتا الغرفة التي ستنامين فيها مع الطفلين الليلة.

تعهدت جاي لنفسها بأن ذلك لهذه الليلة فقط. أما غداً فالمناقشات لا بد ستعود بينهما. وعندما نهضت عن المائدة لتتبع مارتا، ساورها شعور مخيف بأن لايل سيفوز في النهاية مهما سيكون نقاشهما عنيفاً.

قالت مارتا وهما تصعدان السلم:

ـ من حسن الحظ أنني قمت بتهوية الغرف قبل انتقال لايل إلى هنا فلم أكن أعلم أنه عازب، لذا جهزت كل شيء في غرفة الأطفال.. ومن حسن الحظ أنني فعلت ذلك.. ولكن يبدو أن الرجال العازبين كثيرون في أسرة غاونت.

كلمات.. إنها كلمات فقط، ولكنها أكثر حدة في وقعها وجرحها من السهام.

ردت جاي بشيء من الحدة، محاولة تغطية ألمها:

ـ من العجب أن اسم الأسرة ما زال باقياً.

ـ آه، الأسرة تبقى، فهم محاربون أشداء.

نادت مارتا الطفلة هولي التي كانت تركض:

ـ ليس من ذلك الطريق، يا حبيبتي. قلت أن تتجهي إلى الشمال، من قمة هذا السلم.

قالت جاي بلهجة آلية:

ـ الشمال هي اليد التي تحملين لعبتك بها، دعي تيم يذهب أولاً واتبعيه أنت.

ذلك أن الولدين أخذا يتسابقان فكل واحد منهما يريد العثور على باب الغرفة أولاً.

www.elromancia.com

قالت مارتا وهي تضع يدها على مقبض الباب:

- كل منكما هو الأول.. ادخلا الغرفة الصغيرة من هذه الغرفة. وليختر كل واحد سريره ثم قوما بغسل أيديكما ووجهيكما وبعدها ارتديا البيجاما.

- لقد نسيت الحقائب في الطابق الأسفل.

عندما تذكرت جاي ذلك، نظرت إلى الباب آملة حين تنزل لإحضارها أن تجد لايل قد ذهب.

قالت مارتا: «طلب السيد لايل من بوب إحضار حقائبك إلى الطابق الأعلى حين وصولكم.. غرفتكم جاهزة».

كان المفروض أن تشعر لهذا الخبر بالراحة إذ لم يعد عليها النزول والمجازفة برؤية لايل مرة أخرى، وبدل من ذلك تملكها الغضب لأنها رأت في هذا استبداداً من قبل لايل.

فكرت غاضبة في أنه كان يجادلها طوال الوقت لتبقى مع أنه أرسل حقائبها إلى أعلى مع حقائب الطفلين، غير عابىء بكل ما قالته مصمماً على بقائها هنا لرعاية الطفلين.

قالت مارتا مخترقة أفكار جاي وهي تشير إلى الصغيرين اللذين كانا مشغولين في استكشاف المكان:

- لقد ألفا المكان. أليس كذلك؟

أرغمت جاي نفسها على الابتسام بشكل طبيعي:

- لقد تعوّدا الأسفار، والبيوت الغريبة. فهولي مثلاً لا تظهر العناد إلا إذا لم تكن دميتها معها.

- سأساعدك في إرقادهما، قبل أن أخرج.

- أترانا نؤخرك؟ نسيت أنك لا تنامين هنا.

- ثمة كثير من الوقت.. عند الصباح توصلني شاحنة الحليب، أما في المساء، فيقلني السيد لايل إلى القرية بعد إنهائه حلب الأبقار.

مدت مارتا يدها تجر هولي وتضعها في حضنها:

- كنت أنام هنا في حياة السيد كينتين، ولكن كان هنا شخصان آخران طبعاً، ثم راعي البقر وزوجته. لكنهم تقاعدوا عندما مات الرجل العجوز. وبعد ذلك لم يعد مناسباً أن أنام هنا وليس في البيت سوى السيد لايل. أليس كذلك؟

نظرت إلى جاي مستفهمة، فكبتت هذه ابتسامة وهي ترى شعر مارتا الأبيض وجسمها الوافر البدانة.

تابعت مارتا كلامها:

- وافقني السيد لايل على أن هذا غير مناسب، وهكذا صرت أحضر الآن يومياً.

تلاشت رغبة جاي في الابتسام وتملكها الغضب، لقد وافق لايل على صحة هذا العرف الاجتماعي بأن من غير المناسب أن تنام مارتا هنا رغم كبرها في السن. ولكنه لا يمانع أبداً في أن يرغمها هي على البقاء دون أي وازع من ضمير.

***

٢ ـ من يطفىء النار

ـ لماذا لسنا في السرير؟ ما تلك الرائحة الغريبة؟

وسقطت البطانية عن هولي، فاستيقظت جاي من استغراقها في التفكير. وقالت تجيبها بلهجة عفوية قدر الإمكان:

ـ إنها فقط رائحة الخشب المحترق.

تعرف جيداً أن لا جدوى من مراوغة هولي، فالصغيرة البريئة ذات الخامسة، الشقراء الزرقاء العينين، تصبح بالغة العناد والتشبث إذا ما تعلق الأمر بشيء تريد معرفته.

بدا الاهتمام في العينين الزرقاوين المستديرتين وهي تسأل: «أما زال الحريق موجوداً؟»

علمت جاي مستسلمة أن عليها أن ترضي فضول الصغيرة: «لا، جاء رجال الإطفاء وأخمدوا النيران وعادوا الآن إلى بيوتهم».

قالت هولي باستياء: «لكنهم تركوا الرائحة خلفهم».

أجابت جاي تلاطفها:

ـ ستذهب الرائحة مع قدوم النهار.

وكان ضوء النهار قد ابتدأ ينتشر قليلاً، كما لاحظت جاي من نافذة المطبخ.

ـ لا أستطيع العثور على دميتي.

غار قلب جاي وقالت ببشاشة لم تكن تشعر بها:

ـ سنصعد إلى الطابق الأعلى لنبحث عنها، عندما نرتدي ثيابنا.

ـ بل أريدها الآن، فستخاف من الرائحة هذه.

وهذا يعني أن هولي نفسها كانت خائفة، وبحاجة إلى دميتها لتخفف عنها.

قالت جاي بسرعة:

ـ سأذهب وأحضرها إليك الآن.

فوق تلك الرحلة المرهقة أول أمس، والمعركة الكلامية مع لايل عند وصولها، ثم إيقاظه لها بكل تلك الغلظة عند الحريق، فوق كل ذلك، كان الشجار مع هولي هو آخر ما تريده.

ـ إبقي هنا وكوني طيبة حتى عودتي، سأغيب دقيقة أو دقيقتين فلا تتحركي وإلا لن أحضر إليك دميتك.

انحنت تغطيها جيداً وألقت نظرة سريعة، فإذا تيم مستغرق في النوم، وعندئذ أدركت أن تهديدها لهولي كافٍ ليجعلها تلتصق بفراشها حتى عودتها.

ـ ما هذا...؟

بدت غرفة الطفلين وكأن قنبلة ضربتها، كما رأت جاي التي تملكها الذعر. بسبب سرعته ليخرج الطفلين، جذب لايل البطانيات كيفما كان فتناثرت أغطية السريرين على أرض الغرفة.. أين عسى أن تجد دمية الطفلة الآن؟ وانحنت جاي تلتقط أقرب الملاءات عن الأرض.

أخيراً، همست بانتصار:

ـ ها قد وجدتك أخيراً، على الأقل لم تبدأ هولي بالصراخ بعد.

أرهفت أذنيها تستمع إن كان ثمة عويل من الطابق الأسفل. ثم تحولت بسرعة نحو الباب الموصل بين الغرفتين.

ـ هل جننت؟ ما الذي تعنينه بتركك الطفلين وحدهما في الطابق الأسفل؟ قلت لك ألا تعودي إلى غرفتك مهما كان السبب.

صرخ بها لايل بهذا القول بغضب بالغ.

نظرت جاي ذاهلة إلى الغضب اللاهب في عيني لايل الواقف بالباب.

- هذا عمل غير مسؤول. . .

انفجرت غاضبة لتهجمه هذا: «أنت آخر شخص يمكن أن يتهمني بعدم المسؤولية».

- كيف تركت الطفلين وحدهما؟ فمن الممكن أن يذهبا إلى أي مكان في غيابك.

- كان تيم مستغرقاً في النوم، وقد تأكدت من أن هولي لن تتزحزح من مكانها قبل أن أحضر إليها دميتها هذه. تركتهما فقط لمدة خمس دقائق، بينما أنت لم تكن تريد إيواءهما تحت سقفك آمنين، مع أنه لم يكن سقفاً آمناً.

رغم انتقاده لها بالصعود إلى هنا قال وهو يمدّ يديه وكأنه يمنعها من الخروج:

- أريد أن أتحدث معك عن هذا الأمر.

لكن جاي تجنبت يديه وهي ترد عليه:

- قلت كل ما أريده في هذا الموضوع.

لقد أجبرها لايل على البقاء هذه الليلة، وهذا يكفي كما حذرها تسارُع خفقات قلبها، فالعاصفة التي مرّت بها تحت سقف لايل، اخترقت الحواجز التي أقامتها منذ سنوات حول قلبها. عليها أن تذهب قبل أن تنهار هذه الحواجز تماماً على يد رجل لا يرغب في تخطّيها.

قالت: «أريد أن أذهب. وإذا شئت التحدث إلي، فليكن ذلك في الطابق الأسفل بعد أن أعطي هولي دميتها».

تعلم أنها لن تستطيع الهرب إذا أصرّ على منعها من ذلك، كما أنها لا تجرؤ على البقاء وحدها معه أثناء حديثه إليها. لأنها ليست واثقة من صمودها إذا لمسها لايل مرة أخرى. ورفعت يدها، دون وعي منها، إلى شفتيها وكأنها تحميهما منه. . فلما رأى هو منها هذه الحركة بدت السخرية في عينيه.

هو يظنها خائفة من أن يعانقها مرة أخرى. . ولكن أتراها خائفة من أن يفعل ذلك أم من ألا يفعل؟ واحمر وجهها.

- جاي. . . أريد دميتي.

رأت جاي أن الدمية أنقذتها، فانتهزت هذه الفرصة حين التفت جاي إلى حيث صوت الطفلة الصارخ من الطابق الأسفل.

- أنا قادمة يا حبيبتي.

واندفعت بحركة سريعة نحو الباب، منحنية من تحت ذراع لايل الممتدة، راكضة بعيدة عنه هابطة السلم، وكم احتقرت نفسها بسبب ارتفاع خفقات قلبها الذي جعلها تستند إلى باب المطبخ، لكي تلتقط أنفاسها. وعندما تمالكت نفسها، عادت إلى الطفلة ودست الدمية بجانبها في سريرها، وقبلتها قائلة: «نامي الآن حتى يحين وقت الإفطار» وشعرت بالرضى وهي ترى عيني هولي تغمضان.

سألت لايل من فوق كتفها:

- هل ترك رجال الإطفاء المنزل آمناً؟

لم تستدر لتراه. ولم تكن بحاجة إلى ذلك، فكل عرق فيها كان ينبض إحساساً بوجوده خلفها يراقبها. وشعرت بعينيه تخترقان ظهرها وهي تنحني لتركز الطفلة على الأريكة. .

ولكن. . لماذا لا يجيبها. .؟ لا يقول شيئاً؟ تساءلت عن ذلك بيأس. تملكها التوتر أكثر فأكثر لأنه استمر في صمته، وتشبثت أصابعها ببطانية هولي. .

- ما الذي يحدث، يا سيد لايل؟

حدقت جاي إلى خارج الباب وهي تشعر بدوار في رأسها. . كان في الباب امرأة بدينة شائبة تسده. طرفت بعينيها فعرفت المرأة. . همّت بفتح فمها لتخبر مارتا أن لا شيء يحدث.

- قابلت الآن سيارة الإطفاء وأنا داخلة في شاحنة الحليب، فشممت رائحة حريق فظيعة هنا.

إنها تعني النار. . وتملك جاي الهستيريا. . إنها تعني النار ولا تعنيهما هي ولايل، لحسن الحظ أنها لم تتحدث بصوت عال. في هذه اللحظات

التهبت وجنتاها لما قد يكون لايل فكر فيه لو أن مارتا لم تقاطع إنكارها الساخط لما (يحدث هنا).

قال لايل يشرح لها الكارثة التي حصلت.

- أصابت المنزل صاعقة أثناء العاصفة البارحة.

سألت مارتا وهي تعلق معطفها خلف باب المطبخ، ثم تربط مئزرها:

- ما هو مقدار الضرر الذي حدث؟

أجاب باختصار:

- الضرر بالغ. السطح انهار، وغرفتان من غرف الطابق الأرضي تضررتا بشكل سيء، والمكتب غارق في الفوضى، ولكن غرفة الطعام أسوأ لأنها تلفت كلياً تقريباً.

فكرت جاي بمرارة في أن التلف الذي حصل في المنزل لا يقارن بالتلف الذي حصل لقلبها. لكن هذا لا يعني أحداً سواها.

قالت مارتا نائحة: «آه، كل تلك الأخشاب القديمة الجميلة!»

- عانت هذه الأخشاب من النيران أكثر من غيرها. كما أنها ساعدت في سريانها. فعمرها مئات السنين، وتلك التي لم تتفحم منها، تلفت إلى حد لا يرجى معه إصلاح، لا أعرف من أين أبدأ لأخلي كل تلك الفوضى.

أجابته مارتا: «ابدأ بتناول إفطار جيد».

ثم أخرجت من الخزانة قدراً كبيرة وتابعت قائلة: «حساء، بيض مسلوق ومقلي ومربّى الكرز الذي صنعته الخريف الماضي لعمك. وبعد ذلك سأصعد إلى الطابق الأعلى لإعداد غرفتي القديمة. فبهذا يكون بإمكاني المساعدة بشكل أفضل مما لو رقدت في الخارج.. ففي المنزل طفلان الآن».

قال برزانة: «سأحضر لك حقيبتك من القرية حالما تجدين الوقت لحزم أمتعتك».

أجابته مارتا: «لا أفرغ أمتعتي أبداً».

قالت جاي بسرعة: «ولا أنا. لذا عندما تذهب إلى القرية لتحضر حقيبة مارتا، يمكنك توصيلي إلى المحطة.. فمارتا هنا لترعى الأطفال،

وهذا يعني أنه لم يعد لديك عذر في تأخيري عن السفر. هيا يا تيم ويا هولي، لديكما عشر دقائق لكي تغسلا وجهيكما وتغيرا ملابسكما قبل الإفطار».

قالت مارتا معترضة: «من غير اللائق الاستعجال بالرحيل إذ سيريحك البقاء هنا يوماً أو يومين من عناء ذاك السفر».

أوحت لهجتها للسامع بأن جاي جاءت من الخليج مشياً على الأقدام وليس في طائرة نفاثة.

قالت جاي موجهة غضبها إلى لايل:

- بقائي هنا غير مريح حتى الآن.

شعرت بالرضا لرؤية ملامحه تتوتر. لكنها تابعت تقول: «الطفلان ليسا بحاجة إلي، إنهما مستقران سعيدان الآن».

تساءلت بغضب عما يجعلها تختلق عذراً للعودة إلى حياتها الخاصة؟ يبدو أنهما، لايل ومارتا، يريدان أن يجعلاها تشعر بالذنب إزاء رغبتها في الذهاب وكأنها تهجر الطفلين، ولا تتركهما في حماية خالهما.

قالت بحدة تذكرهما بأن هنالك عالماً آخر خارج منزل ميلبول هال ومزرعته،

- عليّ إتمام عملي، عليّ أخذ بعض قياسات رسوم زجاج النوافذ الملونة، وذلك إلى بلدتي في تشستر.

ونظرت إلى لايل بعنف وكأنها تقول له إنها لم تكن تكذب حين قالت إنها كانت في الخليج تبيع زجاج النوافذ الملوّن. بينما تابعت تقول بسرعة قبل أن يجيبها بشيء:

- ليس لديّ وقت أضيّعه، قصر الأمير الجديد سيبدأ تشييده آخر هذا العام.

كان أمامها وقت طويل. عندما تركت الخليج، كانوا ابتدأوا لتوهم في حفر الأساس. لم يبدأوا بتشييد الجدران بعد، لقد أكملت الرسوم والألوان أيضاً عندما كانت في الخليج وذلك لكي يأخذ الزبون فكرة واضحة عن مظهر الزجاج الملوّن في قصره الجديد عند انتهائه، تذكرت أنها أرسلت

أعمالها تلك بالبريد بسهولة بدلاً من أن تصطحبها معها.

لكن عقلها أخذ يدافع عن مبرراتها... إنها لم تكذب على لايل. بل كانت تكذب على نفسها، أبوها المهندس، والعمال الذين يستخدمهم كانوا قادرين تماماً على قراءة تصميماتها التخطيطية. وحيث أنها هي نفسها تعلمت عند والدها، كان من غير المحتمل أن يخطئ أبوها جون بارون تفسير دقائق عملها.

خاطبها قلبها بأن لديها وقتاً كافياً، فيما بعد، لتفحص أعمالها. ليس ثمة حاجة عاجلة تدفعها إلى الابتعاد عن هذا المنزل. بإمكانها أن تبقى هنا وتساعد مارتا في إخلاء المنزل وتنظيفه من مخلفات الحريق.

أدركت جاي بقنوط أن نقاشها هذا مع نفسها وليس مع لايل، وتجنبت عيني هذا الأخير وهي تعود إلى المطبخ مع الطفلين وقد ارتديا ثيابهما واستعدّا لتناول الإفطار.

نظرت مارتا إلى ثياب الطفلين الخفيفة بعينين ناقدتين ثم وضعت صحناً من الحساء الساخن أمام كل منهما:

- إنكما بحاجة إلى كثير من الحساء لتدفئكما. فهذه الملابس لا تفيد في دفع برودة الريح.

قالت جاي: «لم تجد بيث وقتاً تشتري لهما فيه ملابس سميكة.. فقد ضاقت عليهما الملابس التي أخذاها معهما إلى الخليج. ولم تكن عودتهما إلى انكلترا مفروضة قبل شهرين، أي في وقت يكون فيه الجو دافئاً، ولكن كل خططهم فشلت عندما قرر الطفل الثالث في الأسرة القدوم مبكراً».

وخططها هي أيضاً فشلت كخطط بيث، وإن هي لم تغادر منزل ميلبول هال اليوم، بل هذا الصباح بالذات، فستصبح حياتها المنظمة في خطر التمزق وذلك لفترة طويلة من الزمن. هذا إذا استطاعت إخراج لايل غاونت من قلبها.

قالت مارتا: «حتى يزوّدا ببعض الملابس الصوفية، سيكون من الأفضل أن يلعبا داخل المنزل.. سأبقي المدفأة مشتعلة وفي جناح الأطفال

القديم مدفأة قديمة وبساطاً جيداً غير مستعمل».

كانت تضع الخطط للطفلين، سعيدة بهذه المسؤولية الجديدة.

- هذا يبدو مريحاً.

رفعت جاي بصرها إلى لايل، دهشة من هذه الحرارة غير المتوقعة في صوته. وتساءلت عما إذا كان في ذهنه الزواج مستقبلاً. هو في أشد الحاجة إلى وضع امرأة في منزله تسبغ عليه لمسة أنثوية، بينما أولاده يلعبون على البساط أمام المدفأة.

كان لايل يقول:

- هنالك صف قد تشكل في الخارج.

- أتعني القطط؟

وتحوّلت عيناها إلى القطط المصطفة على جدار الحديقة تنظر إليهم. ثم عادت تقول: «إنها تنتظر وجبتها الصباحية، هي أيضاً» ورأت أعين الطفلين تنظران إليها بلهفة، فناولت كلا منهما إناءً يحتوي على الحساء وقالت: «يمكنكما أخذها لها، إذا شئتما، ولكن عودا بسرعة خوفاً من البرد».

ثم رافقتهما إلى خارج البيت.

عادت هولي أولاً، حاملة بين ذراعيها هرة سوداء صغيرة:

- أرادت هذه الهرة العودة إلى البيت.

ولكن النظرة المتوحشة في عيني الهرة لم تدل على ما ادعت هولي.

قال لايل عابساً: «الهررة تعيش في مخازن الغلال وليس في المنزل.. دعيها تذهب قبل أن تخمشك».

قالت جاي محتجة: «لن تتلف شيئاً في المطبخ، فهو خالٍ كالمخزن تقريباً».

دهشت جاي وهي ترى مارتا تساند لايل في رفضه، بقولها: «الهررة هنا غير معتادة على أن يحملها أحد».

فكرت جاي غاضبة في أن مارتا، ربما تشعر بأن عليها مجاراة مخدومها. فمن الحقارة أن ينكر أحد حق الطفل في قطة يلاعبها، فقط لأن لايل لا

يريدها في المنزل. ولكن الهرة ظلت تكافح للتحرر من ذراعي الطفلة. فبدا مزيد من القلق على مارتا، وقالت تقنع الطفلة:

ـ تخشى الهرة أن تخسر طعامها، فهي تريد العودة إلى الأخريات قبل أن تأتي على الطعام بأجمعه.

لكن هولي قالت بعناد: «بل أريد منها أن تلعب معي».

انتبهت جاي إلى الهرة التي زمجرت منذرة بالشر، فقالت: «إذا وضعنا أمامها صحن حساء، فستبقى».

وانحنت تضع أمام القطة صحنها، لكنها تجنبت عيني لايل وهي تقول حين انفلتت الهرة من يدي الطفلة:

ـ إن للطفلة بعض الحق في بيت خالها، وإن لم تضع مارتا في اعتبارها هذا الحق، فأنا سأفعل ذلك في الساعات القليلة الباقية لي هنا.

قالت ذلك بعزم، أما عدد هذه الساعات التي ستبقى فيها هنا فهذا ما لم تكن تعرفه، ولكن مارتا ستحتاج إلى محتويات حقيبتها قبل أن ينتهي النهار، ولهذا سيكون لايل مرغماً على الذهاب إلى القرية ليحضر لها أمتعتها.

صممت بينها وبين نفسها على أن تطلب منه أخذها معه إلى المحطة سواء أراد ذلك أم لا، مع أنها لم تكن متشوقة إلى هذه الرحلة، فمجرد وجود لايل جالساً بجانبها مزموم الشفتين استياءً يجعلها تندم لأنها لم ترسل أمتعتها إلى بيتها بواسطة الشحن. فلو حدث ذلك لكانت حرة مستقلة قادرة على ترك لايل مرفوعة الرأس، لكن حقيبتها كانت ثقيلة بحيث لا تستطيع حملها إلى محطة القطار.

ـ إذا انتهيتم جميعاً فسأغسل الأطباق، ثم نصعد جميعاً إلى حيث جناح الأطفال. قد نجد بعض الألعاب في الصندوق الكبير هناك.

حاولت مدبرة المنزل الحنون صرف نظر الولدين عن الهرة بطريقة تريح ذهن جاي حين تتركهما، وتكشف عن ترحيبها القلبي بهما.

هذا لن يدوم طويلاً فسرعان ما يعود أندرو ويبث ليأخذا طفليهما، فتترك مارتا لايل وحده مرة أخرى. لكن، أثناء ذلك، ستكون هي نفسها

قد عادت إلى بيتها في «تشستر»، حيث عملها، تاركة مشاكل منزل «ميلبول هال» خلفها، ثم تنساها.

ـ ناولني الصحون، يا تيم.

كانت جاي تشارك في إخلاء المائدة، لتقاوم الكآبة التي شعرت بها وهي تدرك أن هذا أول وآخر إفطار تتناوله على مائدة لايل.

ـ سآخذها أنا.

ومدت مارتا يديها تأخذ الصحون التي رفعتها جاي بحذر لتناولها إياها: «حذار، إنها ثقيلة».

ـ ها قد حملتها، سننهي غسلها حالاً، ثم... آه، الهرة.

وفيما بعد، لم تستطع جاي أن تتذكر ما الذي حدث أولاً. زعيق الهرة المعذب، أم صرخة مارتا المذعورة، أم نواح تيم: «حذار، إنك تدوسين على ذنب الهرة».

وعلا صوت التهشم.

تركت قعقعة صحون الإفطار التي تهشمت على الأرض الحجرية تأثيرها البالغ على الثلاثة.. أما سبب ذلك كله فالهرة السوداء التي قفزت هاربة من الباب إلى حيث الأمان بين رفيقاتها في الفناء.

شعرت جاي بالعطف على الهرة التي رأتها، مثلها هي، قد وجدت المنزل مليئاً بالأفخاخ. رفعت بصرها إلى لايل الغاضب وقابلت نظرته فانكمشت خوفاً إزاء ما بدا في عينيه وهو يسأل مارتا:

ـ هل أنت بخير، يا مارتا؟

كان صوته متوتراً قاطعاً.

أجابت المرأة: «إنه كاحلي.. التوت قدمي وأنا أحاول حماية نفسي من السقوط».

قال لايل: «ما كان للهرة أن تكون في المطبخ قبل كل شيء...»

قاطعته جاي بسرعة مخاطبة مارتا: «اجلسي ودعيني ألقِ نظرة».

السنوات التي أمضتها جاي في الأسفار، بهدف عرض رسوم الزجاج

الملونة، عوّدتها على التعامل مع الحالات الطارئة. وانصرف ذهنها عن غضب لايل الصاعق، وطفقت تعمل بسرعة فأمسكت بمدبرة المنزل تقودها بحزم إلى حيث أجلستها على كرسي.

- تيم، أحضر تلك المكنسة واكنس ذلك الحطام. اجمعه في الزاوية، ولا تحاول التقاطه بيدك، وإلا جرحت أصابعك.. أنظري يا هولي من النافذة ولا تسمحي لتلك القطة بالعودة إلى المطبخ.

أعطت كلا الولدين عملاً يقوم به، ثم أضافت: «خذي دميتك معك لئلا تكنس هي أيضاً».

أرادت بذلك أن ترغم الطفلة على البقاء قرب النافذة مع دميتها بعيداً عن الطريق. فقد كانت عودة الهرة غير محتملة إلى المطبخ، فالهررة مخلوقات عاقلة، والتي تهرب لن تجازف بالعودة لمواجهة غضب لايل الذي فاضت عيناه بالشر تجاه الهرة.

أدركت جاي مذعورة أن تلك النظرة تقصدها هي، فالهرة لم تبق لتلقّي اللوم كما لا فائدة من انتهار هولي على إحضارها الهرة إلى المطبخ، وهذا يعني أنه لم يبق سواها في خط النار.

- أنزلي جوربك ودعيني أرَ كاحلك، لقد بدأ يتورم.

أنزلت مارتا جوربها وقالت بإصرار: «إنه التواء فقط وليس كسراً، وإلا لشعرت بذلك».

سألت لايل:

- هل يوجد هنا صندوق إسعافات أولية؟

نظرت إليه بخبث وهي تراه يستدير بصمت مادّاً يديه إلى خزانة مثبتة على جدار المطبخ.

قالت لها جاي: «سأشد كاحلك برباط متين».

تمنت لو تبقى يداها بنفس الثبات ولايل يركع بجانبها يرفع الغطاء عن صندوق إسعاف جديد لم يستعمل بعد.

- أتريدين رباطاً عادياً أم من «الكريب»؟

- من «الكريب»، كما أظن.

الواضح أن لايل سيلغي حالة العداء بينهما حتى تستريح مارتا.. ولكنها شعرت بالضيق، وتمنت لو تهب العاصفة فوق رأسها وتنتهي منها.. أخذت أصابعها ترتجف وهي تلف الرباط بارتباك واضح، وتمنت لو يبتعد عنها بدلاً من مكوثه بجانبها يراقبها. وبسبب ارتباكها انفلت الرباط الملفوف من بين يديها فتدحرج على الأرض إلى آخر الغرفة.

هتفت: «يا للإزعاج».

- اسمحي لي.

التقطه بسرعة ثم ناولها إياه، فتورد وجهها لأنها لمحت في عينيه نظرة تسلية.

أدركت أنه يشعر بارتباكها وأنه يستمتع بذلك. غير أنها حاولت تجاهل ذلك ومدت يدها تتناول منه الرباط، فتلامست أصابعهما.. كان تلامساً خفيفاً، ولكن تأثيره فيها كان أشبه بتيار كهربائي. ومع ذلك استطاعت، بشكل ما، الإمساك بالضماد بينما كانت الغرفة تدور حولها وشعرت بالشحوب يكسو وجهها، فأحنت رأسها بسرعة فوق قدم مارتا التي وضعتها في حجرها ولكنها لم تستطع الإمساك جيداً بالرباط.

- أمسكي بنهاية الرباط، يا مارتا.

جاء صوتها مرتجفاً خافتاً وذهنها المعذب يحذرها لئلا تدع لايل يرى منها ذلك...

أخذت أصابعها المرتجفة تمرّ على الكاحل المصاب، متحسسة المكان الذي ينبغي وضع الضماد عليه. ومن ثم ابتدأ التدريب القديم على الإسعاف الأولي يعمل بشكل آلي.

عندما انتهت، قالت مارتا شاكرة:

- أشعر فعلاً براحة كبرى.

ألقت جاي نظرة عامة على الضمادة بدهشة متبلدة، لأنها لا تعرف كيف استطاعت يداها القيام بذلك فكل ما تتذكره هو التوتر الذي تملكها لوجود

لايل بقربها.

ـ عليك أن تستريحي عدة أيام.

حالما نطقت بذلك، رأت الفخ الذي نصبته لنفسها، فحاولت التراجع ولكن الوقت قد فات لأن لايل قطع عليها الطريق قائلاً وهو يلقي عليها نظرة جانبية:

ـ هذا يعني أن عليك البقاء هنا طوال وقت غيابها.

قال ذلك بحزم، وكأنه أمر لا التماس فحسب.

عندما فتحت جاي فمها لتحتج، أضاف يقول:

ـ لن تستطيع مارتا خدمة الأولاد قبل أن تستطيع السير جيداً.

جربت تجربة أخيرة:

ـ يمكنهما الذهاب إلى مدرسة القرية.

ـ إن مديرة المدرسة لن تقبلهما في هذا الوقت الذي تقترب فيه عطلة العيد كما أنها تدير مؤسسة ثقافية وليس حضانة للأطفال... حتى لو قبلتهما في المدرسة فسيبقى هناك إعداد الطعام للرجال.

كان يحدثها من فوق كتفه دون أن يحمّل نفسه عناء الالتفات إليها.

سألته بحدة: أي رجال؟

لم تر سوى رجل واحد حتى الآن، وكلما ازدادت رؤيتها له، ازدادت كراهية له..

قالت مارتا تجيب عنه:

ـ هناك السيد لايل ورجلين من الأجراء في المزرعة، ثم القطيع.

ردت مذهولة: «القطيع؟»

فكرت: إن مسألة الأجيرين محلولة إذ بإمكانهما إحضار الطعام من منزلهما لمدة يوم أو يومين أما لايل فليعد الطعام بنفسه أو فليذهب بدون طعام.. ولكن القطيع.. قطيع البقر؟

قالت: «لن أقدم طعاماً للأبقار».

قد تقبل أي عمل يفرضه عليها لايل إلا إطعام الأبقار.

لكن لايل قال يفسر لها الأمر:

ـ إننا نعني بالقطيع، راعي القطيع نفسه.

شعرت برغبة هستيرية في الضحك من ناحية، وفي البكاء من ناحية أخرى.. إنها في هذا المنزل مرغمة على البقاء حتى يصبح بإمكان مارتا السير مرة أخرى، وليس هناك شيء يمكنها عمله بالنسبة لهذا الأمر، وفيما ذهنها خائف، كان قلبها منشرحاً لتحوّل الأمور.

سألها تيم قاطعاً عليها تفكيرها:

ـ ماذا سأفعل بهذا الحطام يا جاي؟ لقد كومته في الزاوية كما قلت لي.

أجابه لايل قبل أن تقول جاي شيئاً:

ـ سآخذه أنا إلى صندوق القمامة خارج المنزل.

«قد يقوم بالشيء ذاته بمشاعري» هذا ما كانت تحدث به نفسها ولأنها لا تريد أن يقرأ أفكارها على وجهه، التفتت تنادي تيم وهولي:

ـ هيا بنا نبحث عن حاجز المدفأة.

قالت مارتا وهي ترى شخصاً يبدو عند عتبة باب المطبخ حاملاً حطباً مقطعاً بين ذراعيه.

ـ سيأتي بوب معك ليحمله عنك إلى الطابق الأسفل.

قال الرجل: «صباح الخير».

ووضع الحطب بجانب المدفأة ونظر إلى جاي بفضول.

سألته مارتا: «هل حذاؤك نظيف».

أجاب ضاحكاً: أظن ذلك.. لقد جففت الريح التراب في الفناء..

ـ اذهب إذن مع الآنسة جاي وأنزل حاجز المدفأة من جناح الأطفال القديم، وكذلك البساط الموجود هناك.

غادرت جاي الغرفة معه مسرورة لإدارة ظهرها إلى لايل وإلى ذلك التوتر غير المحتمل الذي يبدو أن تأثيره أشبه بتأثير الريح القارسة.

ـ جميل أن نرى أطفالاً هنا. كان المنزل خالياً منهم زمناً طويلاً.

قال بوب ذلك وهو يرى تيم وهولي يسبقانهما صاعدين السلم.

كانت جاي والطفلان في المطبخ مع مارتا التي كانت تقشر البطاطا في إناء وضعته على ركبتيها.

قالت جاي: «عليّ أن أساعدك في إعداد الخضر».

ـ يمكنني إعدادها جيداً أثناء جلوسي، وسيقدر تيم وهولي على البحث عما أريده وإحضاره لي، لكنني سأكون مسرورة لو أجبت عن التليفون لأجلي. لم أشعر قط بالإلفة مع هذه الأمور، إذ لا يبدو طبيعياً الحديث مع شخص لا يمكنني رؤيته.

أرهفت أذنيها لصوت جرس التليفون في الردهة، فقالت جاي: «سأذهب لأرد عليه».

قالت جاي ذلك باسمة، ثم عادت بعد دقيقتين وقالت إن المخابرة من تاجر الأغذية في «ميلفورد» الذي سيجلب طلب لايل هذا الصباح.

قالت مارتا: «الأفضل أن تخبريه بذلك حالاً».

ـ ألا يمكن أن أخبره عندما يعود إلى البيت؟

لم تشأ جاي البحث عن لايل، ولم تكن تريد أن تواجهه إلا عند الضرورة القصوى.

ـ الأفضل عدم المجازفة بالانتظار. التاجر يريد أن يطمئن إلى أن أحداً سيكون موجوداً عندما يحضر أكياس الأطعمة، فإذا جاء التاجر ولم يجد من يساعده على إنزال حمولته فقد يعود من حيث أتى... والله يعلم متى يعود بعد ذلك من هذا الطريق.

فكرت جاي في أنه سيلومها على ذلك.. واحتمال قيام جدل آخر بينهما هو أسوأ من مواجهته.

سألتها كارهة: «أتعلمين أين يمكن أن يكون؟»

ـ قال إنه سيذهب ليلقي نظرة أخرى على الجناح القديم من البيت ليرى ما عليه أن يفعل لإصلاحه.

ـ كيف أصل إلى هناك؟

ـ بدلاً من أن تتجهي شمالاً عندما تصلين إلى الردهة، اتجهي شمالاً وسيري في الرواق الطويل، البابان الأولان يؤديان إلى قاعة الطعام، والثالث إلى المكتب.. سيكون السيد لايل في أحد هذين المكانين، كما أظن.

اتبعت جاي إرشادات مارتا. فلما وقفت أمام أول باب في الرواق نهرت نفسها على توترها فلن يقطع لايل رأسها إذا هي دخلت إليه حاملة رسالة ما..

مدت يدها بعزم إلى أكرة الباب ونادت: «لايل؟»

ارتد ببطء يواجهها... كان الرماد الأسود في الغرفة منعكساً في عينيه وهو ينظر إليها بعينين شاردتين كأنه لا يراها.

حبست أنفاسها في حلقها، وهي تتقدم نحوه مترددة.

أخيراً قال باختصار: «يجب عليك أن تكوني مع الطفلين».

كان وجهه متوتراً من الإنهاك، وأساريره مغلقة في وجهها.

تمنت لو تصرخ في وجهه بأن لا يقفل دونها ذاته، ولكن كل ما قالته هو:

ـ الطفلان مع مارتا، لقد أحضرت لك رسالة من تاجر الأغذية في ميلفورد.

ثم أبلغته الرسالة بصوت متوتر.

ـ سأهتم بالأمر.

قال ذلك دون أن يبدو أي تغيير في ملامحه أو في صوته.

لم تستطع منع نفسها من القول له بحدة: «كان يمكنك أن تقول شكراً على الأقل».

انقبضت يداها بجانبها، وشعرت بأنها تطرق بعنف على الجدار الذي أحاط لايل به نفسه، تاركاً إياها عاجزة في الناحية الأخرى. أحدث القنوط في نفسها غضباً بالغاً على عزلته المتشددة هذه التي تتجاهل الضراعة الحارة في عينيها البنفسجيتين.

قال وعيناه تعودان من تأملاته العميقة، فتستقران على جاي بشرود،

ناظراً إليها، ساخراً من غضبها عليه: «شكراً».

تحوّلت عيناها عنه لأنها لم تستطع مواجهة نظراته، وتمنت لو أن غضبها لم ينل من سيطرتها على نفسها، لكن الوقت كان فات لهذه التمنيات. لقد أبلغته رسالة من تاجر الأغذية ولم يعد ثمة داع لبقائها ومع ذلك ظلت قدماها ملتصقتين بالأرض كما يبدو. ثم رأت، وكأنها في حلم، يدي لايل ترتفعان متوجهتين نحوها.

«سيعانقني مجدداً ولكنني لن أدعه يفعل ذلك إذ لن أستطيع احتمال الأمر» ولكن هفوة لسانها تسببت في ذلك، ووقت الندم على اندفاعها ذاك قد فات. ربما... ربما ظن لايل، وهو ينظر إليها بتلك السخرية، أنها تتعمد إغراءه.

ـ يجب أن لا يمرّ العمل الحسن دون مكافأة..

وعندما أمسك بها يجذبها إليه، تملك أطرافها الوهن. رأت، بعينين متسعتين، وجهه ينحني عليها، ماحياً ظلمة الغرفة. أحاطت ذراعيه بها يضمها إليه، وهذا ما جعلها عاجزة عن الحراك، ثم تلاقيا في عناق صاعق.

كان رجل الإطفاء مخطئاً.. فقد ضربت الصاعقة نفس المكان مرتين.

كان هذا آخر ما خطر ببالها وهي تستسلم إلى عناقه.. سبق أن ضربت الصاعقة هذه البقعة التي تقف فيها، وها هي ذي الآن تضرب مرة أخرى في البقعة ذاتها.. لكن مصدرها لايل وليس الطبيعة، والغريب أن كل المياه في العالم لن تستطيع أن تطفئ النار التي اشتعلت في كيانها، مهددة بتدمير عقلها وإرادتها، النار التي ألهبت أحاسيسها المستيقظة وحطمت مقاومتها الهزيلة حتى تلاشت كلياً.. لقد اجتذبها عناقه كما يجتذب اللهب الفراشة وعلمت بأن حرارة عناقه لن تجلب لها سوى الألم والدمار. ومع ذلك اندفعت بعناد نحو مصدر الرماد ذاك دون أن تستطيع مقاومة نفسها.

***

٣ ـ صراع الإرادات

شهقت جاي: «النافذة.. زجاج النافذة الملوّن!»

سبح الزجاج الملون أمام عينيها كحبل النجاة فتمسكت به بلهفة لكي تنقذ نفسها من الغرق في دوامة من المشاعر لم تعرفها قط... بدت لها النافذة من التحطم بقدر ما تشعر به نفسها.. نصف الزجاج قد ذهب. والأسد الغاضب المنتصب على قائمتيه الخلفيتين لا وجود له.

قالت متلعثمة: «ها قد أمكن إنقاذ بعض الزجاج».

هل فات وقت إنقاذها نفسها؟ دارت برأسها الدوامة المائية بسرعة لم تترك مجالاً لأي فكر عقلاني بل تركت مجالاً للمشاعر فقط، ومشاعرها لم تكن عقلانية. حاولت إقناع نفسها بذلك وهي ترتجف، إذ لا يمكن أن تكون وقعت في غرام لايل، فلم يمض على معرفتها به أربع وعشرون ساعة، وأثناء ذلك كانا يتخاصمان على الدوام.. عليها ألا تحبه فستكون نتيجة حبها له فظيعة لأنه لا يحبها ولأن عناقه لا يعني شيئاً.. تملكتها رجفة بلغ من عنفها أنها شعرت بأسنانها تصطك، وأخذت تفكر راجية بأن يظن لايل أن البرد سبب ذلك. أدارت جاي رأسها تواجه الهواء البارد عسى أن يزيل دوار رأسها، وتمنت لو كان بإمكانها إزالة آلام قلبها.

رفعت يديها تغطي وجنتيها الملتهبتين، هل ذلك للحماية؟ أم للتغطية؟ لم تجرؤ على رفع نظراتها إلى لايل، فهي تشعر به ينظر إليها وتشعر بأن عينيه تخترقان أصابعها، لكنه لم يحاول لمسها مرة أخرى. لقد مرت اللحظة بالنسبة

إليه. أما بالنسبة إليها هي؟ أغمضت جاي عينيها. لكن أجفانها الرقيقة لم تستطع طرد العذاب منهما، وهكذا عادت ففتحتهما وسمرتهما على أقرب شيء أمامها، ثم قالت بصوت لم تكد تميّز فيه صوتها:

ـ من الممكن إنقاذ بعض هذا الزجاج.

ـ إنني بحاجة إلى خبير.

كان عليها أن تكون شاكرة لأن لايل تجاوب معها. وبدل ذلك، التهبت وجنتاها استياءً لأنه نسي على الفور ما حدث بينهما، نافضاً عنه تلك اللحظات الحلوة وكأنها لم تحدث قط.

ـ أنا خبيرة!

تشبثت بالحديث عن عملها، تاركة إياه يهدئ من ارتجاف أطرافها، ويساعدها على الالتفات أخيراً لمواجهة لايل.

قال متجاهلاً ما قالت:

ـ إنني بحاجة إلى التعاقد مع مهندس يعيد هذا كله كما كان.

تملكها الغضب ولكن قبل أن تعبر عن غضبها بالكلمات، تابع لايل يقول:

ـ أنا بحاجة إلى شخص خبير في إصلاح الأبنية القديمة، فالمنزل بأجمعه بحاجة إلى تجديد، فقد تعرض للإهمال زمناً طويلاً.

أنبأ صوته عن مدى أسفه لهذا الإهمال، وعن عمق محبته لمنزل أسرته العريق.. وشعرت جاي بحسد للمنزل الذي أمكنه الاستحواذ على عطف لايل دون صعوبة:

ـ هنالك عدد قليل فقط من الرجال في هذه المنطقة مختصون بمثل هذا العمل، وأفضلهم، كما سمعت، هو...

ـ جون بارون.

لفظ الاثنان هذا الاسم في وقت واحد.. سكت لايل ونظر إلى جاي متفحصاً، ثم قال ببطء:

ـ طبعاً، لقد نسيت أن اسم أسرتك هو بارون. هل من قرابة بينك وبين

هذا المهندس؟

ـ جون بارون هو أبي.

قالت ذلك مسرورة لأن في هذا عقاباً للايل على عدم تصديقه لخبرتها، ورفعت رأسها مزهوة فالآن استحوذت على اهتمامه.

ـ نوظف عندنا فرقة من الحرفيين المهرة المختصين في هذا النوع من الإصلاحات.. البيوت الحجرية، نحت الخشب، وهكذا. أما أنا فأعمل في تلوين الزجاج. الواقع أن ما جعلني أسافر إلى الخليج هو مجرد مهمة محددة.

ذكرته بهذا بسرور ماكر ونظرت إليه متحدية إياه أن يتحقق مما تقول، ولكنه، بدلاً من ذلك، أومأ برأسه وكأنه وصل فجأة إلى قرار، ثم قال: «هذا يسهّل الأمور فسأتعاقد مع فريق عمال أبيك لإصلاح البيت».

يتكلم وكأن قبول أبيها أمر مفروغ منه..

قالت له بخشونة: «قد لا يقبل أبي القيام بهذا العمل».

فأبوها ليس كأي مهندس آخر، يمكن التعاقد معه بإشارة إصبع. لقد كان في مركز يسمح له باختيار المهمات التي تعترض طريقه..

ـ بإمكان أبيك أن يفرض الأجر الذي يريده.

فقالت بحدة: «يا للغطرسة! كيف تفترض أن للأجر أهمية حين يكون ذلك متعلقاً باسم مثل جون بارون الذي يختار العمل الذي يريده دون اعتبار للأجر».

ـ ليس لديه الفرصة لاختيار العمل هنا، إلا إذا علم به أولاً، وهكذا أقترح أن تتصلي تليفونياً بأبيك وتعلميه أن العمل موجود إذا شاء قبوله. أم عليّ أن أتصل به بنفسي؟

ـ سأتصل به أنا.

ـ إذا لم يكن أبوك قادراً على الاضطلاع بالعمل كله، فربما يوافق على القيام بمهمة صبغ زجاج النوافذ فقط. يمكنك القيام بتحضير الأساس لذلك أثناء وجودك هنا.

ها هو لايل يلقي إليها بتعليماته بكامل السيطرة مفترضاً أن ليس أمامها

من خيار سوى الامتثال وأتباعها.

استيقظ في جاي شعورها باستقلال الذات، فهبّت في وجهه تقول بحدة وتهوّر: لا، لن أفعل...

ـ أما قلت إنك خبيرة؟

أسكتها تحديه هذا ودفعها لتجذب نفساً ممزقاً ليساعدها في الرد على التحدي:

ـ نعم، أنا خبيرة.

ـ أثبتي ذلك إذن.

ـ سأثبته مهما كلفني الأمر.. وما إن أنتهي من توافذك، حتى ترى أنها أجمل مما كانت. سأجعلك تعترف...

ـ سنرى ذلك بعد انتهاء العمل.

كانت كمن يلكم الصخر إذ لم يكن لكلماتها أي تأثير على ملامح لايل الجامدة، فلا ردة فعل بدت على وجهه إزاء غضبها هذا.

ـ عليك استعمال التليفون الموجود في الردهة لأن الوصلة الموجودة في المكتب أتلفها الحريق.

ها هو يدفعها نحو هذه المهمة دون هوادة، مرغماً إياها على الاستجابة إلى إرادته بتهديد ضمني. فإن رفضت، فسيتصل بأبيها جون بارون بنفسه. أطبقت شفتيها بحزم ثم مرت به متجهة إلى التليفون في القاعة وكم تمنت لو يرفض أبوها هذا العمل.

ـ أنا في منزل «ميلبول هال»، كما تعلم سبق أن كتبت إليك أخبرك بأنني سأعيد ولدَيْ بيت معي.

أجاب الأب: «نعم! تلقيت رسالتك.. قرأت عن المكان في المكتبة العامة، فإن له تاريخاً خلاباً».

تملك جاي الاكتئاب، فقالت:

ـ قد يسبب لك هذا العمل الضيق والسأم، إذ سيأخذ وقتاً طويلاً، ثم هو مكان صغير نسبياً.

تملكها الأمل في أن يمنع التأخير والدها من قبول هذا العمل. لكن والدها أجاب:

ـ إنه ليس صغيراً كما تصفينه، كما أنه قديم جداً.. ما قرأته عنه يؤكد أنه جوهرة، واهتمامنا به سيأتي بفائدة كبرى.

تعلم أنه لم يكن يعني المال، والمنزل فعلاً جوهرة وهو على عكس صاحبه الحالي..

حاولت مرة أخرى أن تصرف أباها عن عزمه: «عليّ أن آتي إليكم أولاً لأحضر التخطيطات التي وضعتها عن مهمتي تلك في الخليج».

ـ يمكنك إرسالها إليّ بالبريد. حين أستلمها أتولى أمرها فأريد أن تبقي أنت في ميلبول هال لتقومي بالعمل الابتدائي بشكل شامل عندك.. ومن المؤكد أن شركة التأمين ستطلب تخميناً عن مقدار التلف الذي أحدثته النيران. وأثناء قيامهم بذلك، يمكنك القيام بمسح شامل في بقية أنحاء المنزل. وأظن أن مهمتك ستسهل الأمر فأنت صديقة لصاحب المنزل.

تمتمت تقول: «بل لشقيقته، وليس له.. ماذا كنت تقول؟ لم أسمعك جيداً، كنت أفكر بصوت عال، وهذا كل شيء».

أن تتحدث، خصوصاً في التليفون، عن صراع الإرادتين بينها وبين لايل، لا يشرّف، خصوصاً وأنها هي الخاسرة حتى الآن.

ـ بالمناسبة، لا تنسي استشارة صاحب البيت باهتمام عند كل مرحلة من مسح المكان.

ـ سأتذكر ذلك.

انكمشت إزاء فكرة مواجهاتها الطويلة مع لايل عن إصلاح بيته الجميل العريق. بيت ستصلحه لتستمتع به في النهاية امرأة أخرى.

ـ تذكري أن لصاحب البيت الخيار الأخير في العمل الذي ينبغي القيام به.

انقبض قلبها ألماً فلصاحب البيت حقاً الخيار الأخير.. وهي لن تكون أبداً خياره. وبجهد بالغ، أرغمت نفسها على تركيز ذهنها على ما كان أبوها

يقوله عن اقتراحاته بشأن العمل.

- سأرسل إليكم عصراً معدات الهيكل التي سينصبونها في أماكنها ومن ثم يبدأون العمل عند بزوغ فجر الغد.. غداً ظهراً سيكون لديكم غطاء مؤقت للسقف التالف، أما الخطوة التالية فتعود لكم، فإذا صادفتكم أية عقبة فأعلميني.

العقبة الوحيدة هي لايل الذي ظهر إلى جانبها حالما وضعت السماعة وكأنه ظل غير مرغوب فيه.

سألها بصوت جامد: «حسناً؟»

- قال أبي إنه سيقبل المهمة، ولكنه يريد مني أن أبقى لأقوم بالمسح الأولي..

وبدا عليها أنها لا تشارك أباها رأيه هذا.

***

- خالي لايل، تقول مارتا إن وجبة الحادية عشرة جاهزة.

نظرت جاي إلى خال الصبي من فوق حافة فنجانها، وفي عينيها رغبة في القتال.

قالت بصوت خافت: «لا يمكنني القيام بمعاينة منزلك والعناية بالولدين في وقت واحد».

حدثت نفسها بأن عليه أن يتصرف، إذا أمكنه ذلك! لقد دفعها متعمداً إلى القيام بمهمتين، وعليه الآن أن يتراجع عن واحدة منهما، فهي لا تستطيع ولا تريد أن تقوم بالعملين.

قالت مارتا بسرور: «أنا من سيرعى الطفلين تيم وهولي».

فقالت جاي باحتجاج: «وماذا عن كاحلك؟»

- إنه ليس سيئاً ما دام مضمداً.. بإمكاني الوقوف عليه للعناية بالطفلين، كما يمكنني القيام بالطهي في نفس الوقت.

سألتها جاي متشككة: «وماذا عن أعمال المنزل؟»

فهي لن تقبل القيام بهذا العبء.

قال لايل: «رتبت هذا الأمر، فقد تعاقدت مع فتاة للمجيء يومياً للقيام بأعمال المنزل، بينما تتفرغين أنت لعملك دون مقاطعة».

قال ذلك بهدوء، فعضت جاي شفتها.. تدبر أمر كل شيء، وكأن موافقتها أمر مسلم به.

نهرت تيم لتنفس غيظها:

- تيم، لا ترتشف الكاكاو بهذا الصوت المسموع.

- بوب يشرب الكاكاو بهذا الشكل والصغير يدافع عن حقه في التمثل ببطله الجديد.

نقلت جاي نظراتها من واحد لآخر بحيرة. منذ عرض بوب أن يصلح طيارة الصبي الورقية، أصبح شخصاً معصوماً عن الخطأ في نظره.

قال لايل وهو ينظر من نافذة المطبخ:

- أرى تاجر الأغذية قادماً.

شدّ بذلك انتباه بوب إلى السيارة القادمة إلى الفناء.

- سأذهب إذن، شكراً يا مارتا.

وضع بوب فنجانه الفارغ على المائدة، وأومأ للموجودين ببشاشة، ثم غادر المكان.

قالت مارتا مخترقة الصمت الذي تلا ذهابه: «الأفضل إذن أن تقرر أنت فتح غرفة الإفطار يا سيد لايل، لتتناولوا وجباتكم أنت والآنسة جاي والطفلان».

مرة أخرى، قام لايل بالترتيبات اللازمة باعتبار أن مكوثها في المنزل سيطول، وذلك دون الرجوع إلى رأيها. ولكنها تعرف أن لا سبب يجعله يستشيرها في منزله، ومع هذا كرهت منه إغفاله لها.

فكرت، ساخرة من نفسها بصمت، في أنها جبانة. كان عليها أن تتخذ قراراً سريعاً ضد لايل ليعرف أنها ليست من النوع الذي يمكن الاستخفاف به، ولكنها بدلاً من ذلك بقيت صامتة.

قال لايل: «سيأتي مندوب شركة التأمين عصر هذا اليوم لتقويم مقدار الدمار الذي أحدثته النيران يا مارتا، ولن أستطيع إحضار حقيبتك من القرية قبل المساء».

- هذا غير مهم، يا سيد لايل، قبل غد. إذ لدي من الملابس هنا ما يكفيني يوماً أو يومين.

فقال لايل: «في هذه الحالة، غداً صباحاً إذن».

- لماذا لا تأخذ الآنسة جاي معك؟ فهذا سيمكنكما من شراء ملابس سميكة للطفلين إذ لا يمكنني أن أحبسهما داخل الجدران طوال الوقت، كما أنهما لا يستطيعان اللعب في الخارج بملابسهما القطنية الخفيفة في هذا الهواء القارس.

- سنفعل ذلك.

وافق لايل على كلامها وهذا ما جعل سيلاً من الغضب يتملك جاي، فانفجرت تقول: «لا».

انتبهت إلى زوجين من الأعين ينصبان عليها. عينا مارتا الناظرتان بدهشة خفيفة، ونظرة التصميم الفولاذية المنبعثة من عيني لايل.

تابعت تقول: «سأكون مشغولة جداً في العمل، بالمسح الشامل في المنزل.. خذ مارتا معك بدلاً مني».

قالت ذلك بصوت حازم، فهي هنا بموجب عقد بالنيابة عن شركة أبيها، وليس لخدمة لايل.

ازداد الفولاذ في عيني لايل تصلباً:

- مارتا لا تستطيع السير في الأسواق على كاحلها المصاب.

ردت عليه بعناد: «خذ الولدين معك إذن واشتر لهما ثياباً بقياسهما».

- لا يستطيع الطفلان السير في الأسواق بثيابهما القطنية في هذا البرد..

رأت نفسها في مأزق، فلم يكن من العدل أن تحرم الطفلين من الدفء في سبيل الثأر لنفسها من لايل.. عضت شفتها غضباً وقنوطاً. شعرت بالكراهية له لحشره إياها في وضع لا يمكنها فيه الرفض.. هزت كتفيها

متصنعة عدم الاكتراث، وقالت:

- إنه العمل في أملاكك الذي سيتأخر، وسيكون عليك أن تدفع أجر وقتي.

ذكرته بذلك بحقد، محوّلة فوزه عليها إلى فوز لها أقل أهمية. هذا في الوقت الذي أخذت تتساءل فيه عن مقدار بعد المدينة. ولكن مهما كانت الرحلة قصيرة فستكون طويلة جداً بالنسبة إليها، لأن لايل هو مرافقها الوحيد.

سألت مارتا، وهي تقوم بمسح شامل سريع لما تعده للغداء.

- متى سيأتي مندوب شركة التأمين، يا سيد لايل؟

- سيكون ذلك في الساعة الثانية.

لم تستطع جاي منع نفسها من القول: «هذه سرعة غير عادية من شركة تأمين».

ألقى عليها لايل نظرة جانبية:

- هذا طبيعي فحين سمع بما يحدث رتب وقته للحضور في أسرع وقت ممكن.

- آه! هذا طبيعي!

لم يكن التهكم في صوتها خافياً، فضاقت عينا لايل، ولكن جاي تجاهلتهما وتابعت تقول دون اكتراث:

- لا شك أنه، عندما يطلب شخص من آل غاونت المساعدة، كل المنطقة تهب لنجدته.

إذا جاء مندوب شركة التأمين خالعاً قبعته احتراماً، فإنها، هي جاي بارون، غير مستعدة لفعل الشيء نفسه.

لكنه لم يكن يلبس قبعة، كما لم يكن كبيراً في السن أو بادي الخضوع كما تصورته. بل هو متوسط السن بشوشاً.. ولعل ما رفعه في عيني جاي سرعته في معرفة جون بارون.

قال لايل: «لقد تعاقدت مع جون بارون للقيام بالإصلاحات».

www.elromancia.com

ولأنه لم يقل (إن جون بارون وافق على قبول. . .) تملك جاي السخط لذلك، وألقت على لايل نظرة سريعة غاضبة، ولكن قبل أن تقول شيئاً، قال مندوب الشركة:

- هل قلت جون بارون؟

وأطلق صفير رهبة كان بمثابة البلسم لكرامة جاي المجروحة، فتلاشى غضبها. وعندئذ منحت الرجل ابتسامة حلوة، ثم قالت:

- أنا جاي بارون، وأنا هنا للقيام بمسح شامل للأضرار لأجل شركتنا.

ألقت نظرة كالسهم على لايل وكأنها تقول: (ليس لكي أعدّ لك الطعام، أو أركض معك إلى السوق لشراء ثياب لطفلي أختك، أو القيام بأي شيء لأجلك).

- وجودك هنا يجعل مهمتي أسهل، وسارّة جداً، يا آنسة بارون.

ثم بادلها ابتسامتها مرفقة بنظرة إعجاب سافر بعثت إلى وجه لايل تكشيرة أكثر سواداً من العاصفة التي دمرت منزله.

لاحظت جاي، بسرور، التكشيرة التي ارتسمت على وجه لايل.

قال مندوب الشركة الذي لم يكن منتبهاً إلى التيار الخفي الشائك المتدفق حوله:

- إذا كنت توافقين على مرافقتي أثناء جولتي في أنحاء المنزل لفحص مقدار الدمار.

توقف قليلاً ثم أردف:

- يمكننا تقويم مبلغ الدمار معاً، والوصول إلى اتفاق، ولو على النقاط البارزة على الأقل. وبتلك الطريقة يمكنك الحصول على الموافقة النهائية على تقويمك، من شركتي، بشكل رسمي.

لم يشك مندوب شركة التأمين في مقدرتها. فشعرت بالسرور وألقت نظرة ظافرة على لايل، لكن وجهه بقي جامداً، رافضاً الاعتراف بفوزها. حينئذ ارتدت على عقبيها تسير بجانب الرجل نحو الجناح الذي دمرته الصاعقة، ولم يتخلف لايل عن قبول دعوة مندوب الشركة لمرافقتهما،

وهكذا سارت جاي بقوة عزيمة، شاغلة نفسها بحديث الرجل الذي أغرقها بكلمات الإعجاب.

قال الرجل وهو يهز رأسه بحزن:

- يا له من دمار! ذاك الخشب القديم الجميل وزجاج النوافذ الملون.

- يمكن إنقاذ كثير من الزجاج، لهذا حذار وأنت تسير. . فبعض قطع الزجاج تساقطت على الأرض تحت النوافذ، ولكنها لم تتكسر جميعها. . لا بد أن أكثرها من الزجاج الأساسي، فهي لا تثمّن، وقد نتمكن من العثور في مكان عملنا على قطع تتلاءم معها، قطع تخلفت لدينا من أعمال أخرى.

- يا سيد غاونت أرى أن نوافذك ستعود جديدة عندما ينتهي عمل الآنسة بارون بها.

عارضته جاي بحزم: «بل أفضل من الجديدة». فضحك الرجل وقال مشجعاً: «يمكنك أن تقولي هذا مرة أخرى! بيديك. . .».

فكرت جاي بأنها سبق أن قالت ذلك مرتين. . نظرت إلى لايل مباشرة، فمع أن كلماتها غير موجهة للرجل الآخر، لكنها رأت أن معناها لم يفت لايل.

تشابكت نظراتهما، وردت نظراته تحدّيها «أثبتي ذلك».

- أخشى أنك لن تستطيع إنقاذ أي من الألواح الخشبية المكسوة بها الجدران. على الأقل ليس في هذه الناحية من الغرفة.

اخترقت هذه الملاحظة الخفيفة من مندوب الشركة عنف نظرات لايل، كما حولت جاي نظراتها بعيداً، مرغمة نفسها على التحديق إلى خشب الجدران. . وشعرت بأنها محطمة كتلك الأخشاب المتفحمة الملتوية المتدلّية من الجدران المسوّدة وكأنها تريد الهرب من دمار النيران.

نظر لايل إلى أعلى وهو يقول:

- كان هنالك ستار يفصل القاعة إلى نصفين عندما تريد الأسرة أن تتعشى وحدها.

أعادت كلمات لايل مشهد الإلفة الحميمة، وأجفلت جاي لفكرة أن

شركتها ستعيد هذا الستار لتزوّد أسرة لايل مستقبلاً بإمكانية الانفراد.

- حالما تنتهي هذه المعاينة سأحضر سقفاً من البلاستيك وأربطه إلى السقف للحماية من الجوّ.

سارعت جاي على الاعتراض:

- لن يفيد البلاستيك لأن الرياح العنيفة قادرة على تمزيقه.. إنه أكثر إزعاجاً مما يستحق.. قريباً يصل فريق من عمال هيكل البناء لإقامة غطاء من الحديد فوق المكان المدمّر وبعد ذلك يمكن بناء السقف الجديد تحت ذلك الغطاء المؤقت.

يجب أن يعلم لايل أنها ليست مجرد صفر في هذا العمل.. إنه صاحب الملك حقاً، ولكن مسؤوليته تبدأ وتنتهي عند هذا، فحالياً هي المسؤولة عن معاينة المكان.

- متى سيصل عمال هيكل البناء؟

تضمنت لهجة لايل تحذيراً، لكنها لم تنتبه إلى ذلك.

- سيصلون عصر هذا اليوم، وما إن يطلع فجر الغد حتى يباشروا العمل فنحن لا نجرجر أقدامنا كسلاً، ولكننا لسنا بسرعة الطائرات النفاثة.. على رجالنا أن يأتوا من «تشستر» لا تنس هذا.

قالت الجملة الأخيرة بحدة.

فقال معترضاً: «إذا هطل المطر هذه الليلة، ستغرق المياه ما بقي من محتويات الغرف، وعندئذ سيتضاعف التلف. لعلك لم تنتبهي أن جانباً بأكمله من السقف مفتوح على السماء».

توترت شفتاها وهي تقول بحدة: «بل انتبهت إلى ذلك، لكن الجوّ صحو تماماً ولم تظهر غيوم في السماء منذ انجلاء العاصفة هذا الصباح».

- من غير الممكن التنبؤ بالجوّ المحليّ هنا بسبب التلال شمال ميلفورد.

تمتمت تقول بلهجة ذات مغزى:

- ليس الجوّ المحلي فقط..

تدخل مندوب الشركة يوافق لايل رأيه:

- هذا صحيح، يا آنسة بارون. الجوّ هنا معرض للانفجار في أية لحظة.

ردت بحدة بلهجة ذات معنى: «سبق أن واجهت عدّة منها».

أحست به يدمدم بلهجة من لم يعد يطيق جدلاً: «هذا هو السبب في أنني أريد أن أضع سقفاً خفيفاً حالما تنتهي هذه المعاينة».

بالنسبة لأعصاب جينا المتوترة، بدا أن المعاينة ستدوم ساعات. بينما هي، في الحقيقة، لا يمكن أن تدوم أكثر من ثلاث. انتهى مندوب الشركة بغرفة الطعام. ووافق على النقاط الرئيسية التي ينبغي معالجتها وقرر أي أثاث يمكن إنقاذه وأياً لا رجاء فيه.

قال مندوب الشركة عندما رأى الضرر في المكتبة: «يبدو أن خزانة الكتب والمكتب هما الأكثر تضرراً بسبب قربهما من الجدار الخارجي. هل كانا يحتويان على أشياء ذات قيمة خاصة، يا سيد غاونت؟»

- سجلات المزرعة المغلفة بالجلد، والأهم هي تفاصيل تواريخ سلالات الماشية.

من خلال بقع الماء والسخام، تمكنت جاي من قراءة تواريخ مجلد أو مجلدين كان تضررهما خفيفاً، ثم قالت بصوت حاسم:

- كتاب واحد من كل عام.

- كان عمي يحتفظ بسجل يحتوي على تفاصيل تربية أول عجل ابتدأ به القطيع وذلك منذ خمسين عاماً. تلك المعلومات لا تثمّن وبما أنه لا يوجد منها نسخة أخرى، فهو لا يمكن تعويضه أيضاً. لقد تدمرت جهود عمر بأكمله في دقائق قليلة.

أنهى لايل حديثه هذا بمرارة بالغة وشعرت بأنه يلومها وكأنها كانت السبب في هذا الدمار.

وعادت إلى ذاكرتها كلمات سبق أن قالها لها من قبل: (ما كانت النيران لتصل إلى هذا الحد لو لم أضيّع وقتي في إنقاذك مع الولدين) هل كانت السجلات لتنجو من الحريق لو أن النيران أطفئت في وقت أسرع مما حدث؟ هل كانت تلك العشر دقائق البالغة الأهمية ستجعل الفرق كبيراً جداً؟ قال

وجه لايل الجامد إن هذا صحيح. وتملك جاي الغضب لاتهامه الظالم هذا.

قالت بإصرار، رافضة قبول لومه:

ـ ما حصل هو تضرر وليس دماراً، كما أن الولدين أثمن من سجلات قديمة يعلوها الغبار.

قالت ذلك بصراحة، ليس لمندوب الشركة الذي بدا عليه الارتباك، بل للايل.

أردفت عابسة: «لو أنهما تعرضا للحرارة والدخان، لما كانا الآن في حالة جيدة كما هي السجلات الآن».

ألقى لايل إليها أحد أسوأ السجلات مظهراً وهو يزمجر قائلاً: «أتسمين هذا حالة جيدة؟ خصوصاً الكلمات التي لم يعد بالإمكان حل رموزها».

ـ لكن ليس تماماً.

على الضوء المنبعث من النوافذ، وقعت عينا جاي على كتابة باهتة كانت ذات مرة واضحة المعالم.

عادت تقول متوسلة إلى لايل بسرعة:

ـ لا تقفل الكتاب، اتركه مفتوحاً ودعه يجف.. أعطنيه.

ولأنها خافت أن تجعله توسلاتها يتصرف عكس ما طلبته منه، أمسكت بطرف غلاف الكتاب وكررت توسلها: «أمسكه برفق».

رفض لايل تسليمها الكتاب وسألها: «وما الفائدة من ذلك؟»

تملكها الارتباك وهي ترى نفسها معه وجهاً لوجه فوق الصفحات المحترقة، بينما قال هو:

ـ بإمكانك أن ترى أن الكتابة ممحوّة، لذا لا تحاولي التراجع عن مسؤوليتك.

تمكنت جاي من السيطرة على نفسها بجهد بالغ، وقالت بإصرار: «يمكنني أن أحدّد السطور الباهتة لبعض الكتابات. هنا... وهنا».

يدها ما زالت متشبثة بالكتاب بعناد كيلا يقفله لايل مرة أخرى، بينما بيدها الأخرى أخذت ترفع الصفحة برفق نحو الضوء لتدعه يشع من خلال

الورقة فينير الخط الذي ما يزال ظاهراً بشكل باهت.

إنفجر لايل بضحكة جافة وهو يقول:

ـ عناوين باهتة.. ولكن الكتابة لا تكاد تظهر للعين، وهنالك رفان مليئان بكتب كلها بهذه الحال، بل أسوأ.. هذه مهمة مستحيلة.

قالت: «نعم، بالنسبة للعين البشرية، ولكن بالنسبة إلى الميكروفيلم، المهمة ممكنة. هنالك نوع خاص متقدم من الميكروفيلم يمكنه تصوير حروف غير مرئية للعين البشرية. ستتصل بخبير في «تشستر» كان قام لأجلنا بعمل مماثل في الماضي، وكانت النتيجة ممتازة».

قابلت عيناه غير المصدقتين نظرات واثقة تريد أن تحطم لوم لايل لها، وتجعله يرى أنها لا تقول له ذلك لتبرير عملها.

قالت وهي تنظر في عيني لايل، محاولة اختراق جمودهما لتصل إليه:

ـ إنه عمل طويل إذ يجب أن تجفف كل صفحة قبل تصويرها، وفي النهاية يعاد إخراجها، ولكنها لن تكون بجودة الأصل..

ـ استمري.

كان يصغي، على الأقل، لذا استمرت في كلامها.. كانت كلماتها تتراكم فوق بعضها البعض لتمنع لايل من إطباق غلافي السجل وهو ما سيزيد من تلفه.

ـ جعل الحريق الأوراق هشة لذا يجب إمساكها بفائق العناية وإلا تفتتت.. انظر، بدأت أطرافها تتجعد حيث وصلتها المياه.

خفض بصره إلى حيث التجعدات، ثم عاد ينظر إليها.

أمسكت جاي أنفاسها، وهي تقول: «ذلك سيكلف كثيراً».

إنها تسير في الطريق الذي سيجعلها تستحق لايل، والذي سيعفيها من اللوم على انتشار الحريق.

ـ ستتكفل شركة التأمين بكل النفقات.

لم تكد تسمع طمأنة مندوب الشركة لها لأنها كانت تحدق إلى لايل وتقول: «إذا كانت هذه السجلات ثمينة في نظرك، كما تقول...»

كانت ملامحها تقول بوضوح إنها لا تصدق هذا. بدت وكأنها تتهمه بأنه يجعل من تلف السجلات عذراً... سلاحاً يعاقبها به لشيء لا ذنب لها فيه.

استمرت تقول: «إذا كانت هذه المستندات ثمينة في نظرك، كما تقول، فاترك الدفاتر لي، إذن. وأنا سأرسلها إلى تشستر لكي يأخذوا لها صوراً بجودة الأصل، إن لم يكن أفضل».

قالت له ذلك تتحداه بغضب بالغ.

* * *

٤ ـ يحجب عنها السماء

ـ كانت معرفتي بك فرصة سعيدة، يا آنسة بارون.

شعرت جاي بيد مندوب شركة التأمين الدافئة تحتضن يدها، فتملكها الاكتئاب وهي تتمنى لو أن لايل يقول لها نفس الكلام.

ـ عندما أنتهي من تقويمي أعلمك به.

قالت له هذا وهي تتمنى لو يطيل بقاءه قليلاً لأنها كانت تشعر بالذعر لاحتمال بقائها وحدها مع لايل.

قال الرجل بحرارة: «أظننا تفاهمنا فيما بيننا على كل النقاط الرئيسية».

ـ لا أدري...

عبست وهي تحاول التفكير في نقطة أخرى يمكنهما التفاهم بشأنها. لكن شيئاً لم يخطر ببالها.. كان ذهنها صفحة بيضاء، لا يشعر بغير لايل الواقف بجانبها، طويلاً صامتاً.

اخترق الصمت قائلاً وهو يمد يده لمندوب الشركة: «شكراً لقدومك».

تعهدت جاي لنفسها بعنف بأنها ستجعله ذات يوم يشكر لها قدومها هي أيضاً. ثم عادت فتذكرت، بما يشبه الصدمة، أن اليوم الذي ستتحقق فيه أمنيتها هذه، سيكون يوم فراقها عن هذا البيت.

قال المندوب: «سأذهب الآن يا سيد غاونت، فالسيارة القادمة نحو منزلك، أحسب أنها بحاجة إلى مكان سيارتي مع مسافة أخرى بجانبها.

ـ إنها المعدات للهيكل.

www.liromancia.com

كادت جاي تنفجر ضاحكة وشعرت بالراحة وهي ترى الثان الكبيرة.

قال لايل: «جاؤوا متأخرين بالنسبة لنصب الهيكل فسيحل الظلام بعد ساعة».

قالت جاي: «لن يحاولوا نصب شيء الليلة بل سينزلون الليلة أحمالهم على أن يبدأوا العمل في الصباح الباكر، إلا إذا أردتهم أن يعملوا على ضوء الكشافات القوية، القرار لك ما دمت ستدفع الأجر الزائد».

نظر إليها طويلاً بهدوء، ثم قال: «هذا ليس ضرورياً، فالغطاء البلاستيك يفي بالغرض هذه الليلة».

ـ مساء الخير، يا آنسة جاي.

ارتدت جاي مبتعدة عن لايل متجهة نحو الثان الذي كان يقترب:

ـ أين يمكننا إنزال حملنا؟

ـ أنزله بجانب ذلك الجدار، لهذه الليلة.

قالت ذلك بسرعة وعندما سمعت وقع خطوات خلفها، صممت على عدم السماح للايل باغتصاب السلطة منها.

قال لايل يخاطب السائق:

ـ إذا أنزلتم الحمل بجانب الجدار، فسيكون في طريق قطيع الماشية عندما يدخلون لحلبها.

شحب وجه جاي وشعرت بخيبة الأمل لأنها رأت السائق يلتفت إلى لايل بشكل طبيعي يسأله: «أين ننزله إذن، يا سيدي؟»

فتحت فمها لتسبق لايل بالإجابة، ولكنه سبقها قائلاً:

ـ حول الجهة الأخرى من المنزل.

عندما ابتعد الثان، ارتدت جاي إلى لايل تقول بغضب بالغ:

ـ هل كان ضرورياً أن تلغي تعليماتي للسائق؟ من غير الممكن أن تعترض المعدات طريق الماشية لليلة واحدة؟ أنا المسؤولة عن المعاينة، ولا يمكن للرجال العمل تحت سلطتين، خصوصاً إذا كانتا متناقضتين.

وإذا بابتسامة عريضة تكسو وجهه فجأة، ثم ما لبث أن مدّ يديه يحيط

بهما خصرها يجذبها إليه.

ـ إذا أنت لم تتحولي جانباً فلن يبقى للرجال سوى سلطة واحدة.

ـ إياك...

لكن الغضب لم يحمها من لمسته إذ شعرت بأصابعه حول خصرها كحلقة من نار، فحاولت التخلص منه بحركات متشنجة وكأنها وحش وقع في شرك لم يستطع النجاة منه.

ـ قفي جامدة، وإلا سُحقت.

أمرها بذلك وهو يمسك بها بقوة.

كانت جماعات من أجسام بيضاء وسوداء تتقدم بتثاقل وبطء حول زاوية الجدار نحوهما، يستحثها صوت رجل غير منظور من مكان ما في الخلف. اتسعت عينا جاي خوفاً، ولم تستطع منع شهقة مختنقة وهي تتشبث بذراعه.

توسلت إليه وهي ترتجف: «أوقفها، أبعدها من هنا. افعل شيئاً».

وعندما أخذت البقرة القائدة في الهرولة، يشجعها الصوت القادم من خلف القطيع، انهارت شجاعتها. وبصوت مختنق، التفتت إلى لايل تخبيء وجهها في سترته، وقد أغرقت كبرياءها وغضبها موجة الرعب التي تملكتها من اندفاع الأبقار نحوهما في لهفتها إلى ملجأ وطعام في حظيرتها.

ـ اجلسي على الجدار، فستكونين آمنة هناك.

بشكل لا يصدّق، جلجلت في صدره ضحكة مكتومة وهو يرفعها ليضعها على الإفريز الحجري النافر من الجدار الذي يفصل بين فناء المزرعة وحديقة المطبخ.

ـ لا تتركني.

تشبثت به بلهفة، خائفة أن يتركها جاثمة على الجدار، ثم يذهب لوضع السقف البلاستيكي.. خائفة من الوقوع على القطيع المنساب تحتها. ألن ينتهي هذا أبداً؟

ـ استمري في طريقك يا ديزي، فأنت تعيقين الصف. أبعدها من هنا،

يا شيب.

أدار الكلب البقرة القائدة عبر الفناء بعيداً عن الجدار، نحو الحظائر في الناحية الأخرى.

- مساء الخير أيها الرئيس... ويا آنسة بارون.

أصبح صوت الراعي ذاك، رجلاً يلبس حذاءً طويلاً ثم، وبشكل لا يصدق، تجاوزهما القطيع.

مد لايل يديه ينزل جاي عن الجدار إلى الأرض. ثم قال بجد متفحّصاً وجهها الشاحب.

- الأبقار لا تحترم الأشخاص.. ولا أعمدة الهياكل.

نظرت إليه بتبلد، ولم تستطع أن تجد جواباً لأنها كانت ترتجف ارتجافاً شديداً، وقد جف حلقها. ولكنها لم تعلم إن كان ذلك نتيجة الخوف، أم لأن لايل أمسك بها، ولم تجرؤ على محاولة معرفة الجواب.

- أين علينا أن نضع صناديق الإنقاذ يا آنسة جاي.

أنقذها صوت سائق الڤان الذي دار حول الجدار يناديها طلباً للتعليمات. عندها سارعت جاي للابتعاد عن لايل، آملة أن لا يكون الرجل لاحظ موقفها المخزي، أو ذراعي لايل حولها..

ردت عليه، مقطوعة الأنفاس، مرغمة نفسها على الحديث بسرعة قبل أن يتكلم لايل:

- في أصغر الغرفتين المدمّرتين، في المكتب.

رفع لايل حاجبيه مستفهماً:

- صناديق الإنقاذ؟

تملك جاي شعور بالرضا وهي ترى أنه هو الضائع وليس هي، إذ ساعد ذلك بشكل ما على المساواة بينهما.

- إنها صناديق مبطنة بخشبات ناعمة لحفظ البضاعة الهشة التي ترسل إلى محلاتنا للإصلاح.

أصبحت الآن، على الأقل، على أرض مألوفة.. استمرت تتكلم.

شاعرة بثباتها بعد مستنقع المشاعر الذي أخذت تتخبط فيه منذ وقعت عيناها على لايل.

- إحضار هذه الصناديق إجراءات روتينية للاستخدام إذا احتاجوها.. فإن شئت تصوير سجلات مزرعتك بالميكروفيلم، هيئت صناديق الإنقاذ للاستعمال في الحال.

تحدته كلماتها ونظرتها، على الاعتراف بأن سجلات المزرعة غير مهمة بالنسبة له كما يريد منها أن تعتقد.

- أريد تصويرها ميكروفيلم.

قال ذلك بصوت فاتر.. أهو اعتراف؟ أم توجيه؟ نظرت إليه متشككة، ولكن وجهه لم يكن يعبرّ عن شيء، وبعد لحظة طويلة من التردد، هزت كتفيها وكأنها لا تكترث بأي من الأمرين، ثم قالت:

- في هذه الحالة، سأبدأ حالاً بتعبئة السجلات التي سيحملها العمال معهم إلى ورشاتنا عندما ينهون نصب الهيكل غداً.

ستمتلئ يداها بالعمل، وستكفّان عن الارتجاف. حاولت أن تشعر بالبهجة لأن لايل اقتنع بنصيحتها بالنسبة إلى سجلات المزرعة. لكنها لم تشعر بغير الفراغ الكئيب عندما ظهر بوب من خارج أحد مباني المزرعة في الناحية الأخرى من الفناء وشرع في السير نحوهما.

هتف به لايل: «أحضر معك لوحاً من البلاستيك. وتعال ساعدني في تغطية السقف المدمر، سأذهب وانصب سلمين».

ثم ارتد على عقبيه تاركاً جاي التي ابتعدت مع سائق الڤان لكي تريه غرفة المكتب، وكانت تشعر بوحدة بالغة لأن لايل ليس بجانبها.. عاين السائق الدمار في المكتب بعين خبيرة، ثم قال: «وجودك هنا أثناء وقوع الحادث كان شيئاً حسناً يا آنسة جاي، فوجود عضو في الشركة مصادفة في مكان يستطيع الحصول فيه على عمل، هو أمر لا يحدث كثيراً».

تساءلت جاي ساخرة عمن عسى أن يكون صاحب وجهة النظر هذه؟ ليست هي بالتأكيد.

www.liilas-romancia.com

- أتريدين مساعدة في تعبئة هذه الدفاتر، يا آنسة جاي؟

- لا.. اذهب وساعد رفاقك في إنزال حمولة القان لأنكم ستبدأون العمل باكراً صباح غد.

أرادت أن تنفرد بنفسها.. أن تتمالك توازنها قبل أن تواجه لايل مرة أخرى.

- لقد استأجرنا غرفاً في فندق في القرية، والمفروض أن نذهب الآن، ولكن إذا كنت واثقة من أنك لا تريدين أن أساعدك؟

- كل الثقة، شكراً.

ما إن ابتعد السائق حتى تنفست جاي الصعداء، ثم مدت يدها إلى خزانة الكتب تتناول أقرب سجّل إليها. عندما رفعته سالت على يدها منه قطرات سوداء من الماء. تناولت من صندوق الانقاذ قبضة من الحشو القطني، وأخذت تلتقط به برفق بالغ الماء من السجل، جففته قدر إمكانها محاذرة تهشيم الصفحات المحترقة في الداخل وعندما انتهت وضعته في الصندوق وغطته بالحشو بحذر. ثم تناولت سجلاً آخر وراحت تعمل بثبات حتى كادت تفرغ الرفوف، وبدأت صناديق الانقاذ بجانبها تمتلىء.. أثناء ذلك، كانت تتمتم محدثة نفسها بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ نفسها في الأسابيع القليلة القادمة. فبذلك تطرد من ذهنها كل ما يتعلق بلايل من أفكار. عندما تلجئها الضرورة إلى الاتصال بلايل فعليها أن تتظاهر بالهدوء والواقعية، لأنها تعرف أن نظرة واحدة منه أو لمسة منه قد تسبب الوهن لأعضائها وسرعة في خفقان قلبها...

- آه، الجوّ بارد.

جلست على عقبيها وأخذت تنفخ في أصابعها المتجمدة..

- دعي بقية الدفاتر حتى غد.

جاء هذا الصوت من فوقها فجأة، كأنه آت من الفضاء الخارجي. وكان أن أجفلت جاي ونظرت حولها بعنف: «أنا هنا فوق».

دفعت بصرها فرأت وجه لايل ينظر إليها من فوق رأسها من خلال

فجوة في السقف. كان تأثير ذلك عليها غريباً غامضاً، رأسه وكتفاه يحجبان السماء. تسمّرت عيناها المتسعتان المجفلتان في عينيه.

- منذ متى أنت هناك؟ لماذا لم تنادني لأعرف أنك موجود فوق؟ لا أحب أن يراقبني أحد أثناء عملي.

ألقت عليه هذه الأسئلة عابسة، فمراقبة الآخرين دون علمهم تطفّل شنيع، كما أنها لا تعلم كم بقي من الوقت يراقبها قبل أن يتكلم.

قال ببرر صيحته: «لو ناديتك، لربما أجفلت وسقط من يدك أحد الدفاتر.. أما أخبرتني أن المفروض إمساكها برفق بالغ، وإلا تفتّتت».

- اترك لي شيئاً من اللوح البلاستيك، يا سيدي لأنه لا يغطي تماماً هذه الناحية من السقف.

قطع صوت بوب محاولتها الاحتجاج، كما كفّ لايل عن النظر إليها واختفى وجهه من الفجوة بعد أن انتصب واقفاً. فرأت قمة السلم الذي يقف عليه، فوقها. أخذت تضحك بشكل عصبي مكتوم ورفعت يدها تستر فمها كيلا يراها لايل.

عاد وجه لايل يبدو من خلال الفجوة: «سيكون لديك الكثير من الوقت لإنهاء هذه الدفاتر غداً صباحاً».

تمنت جاي من كل قلبها لو يسرع بوب بثبيت اللوح البلاستيكي ويخلصها من رؤية لايل، وشعرت بنفسها وكأنها حشرة تحت المجهر وهو يحدّق إليها. حاولت أن تخلص نفسها من هذا الشعور، فقالت بعناد:

- لم يبق الكثير من السجلات على كل حال.

تعمدت أن تتحدّاه، فمدت يدها تتناول سجلاً آخر من على الرف، ولكنها شعرت بيديها ترتعشان من البرد فلم تستطع أصابعها الحراك كما يجب.. لذا أخذت تتحسس غلاف الدفتر بارتباك.

قال لايل بإصرار: «سرعان ما يحل الظلام فلا تستطيعين رؤية ما تفعلين».

ثارت أعصابها، وصرخت به:

- يمكنني الرؤية بشكل أفضل كثيراً لو أنك لا تسدّ الضوء من فوقي.

وتشبثت بالسجل الذي انزلق من بين أصابعها المتوترة.

صرخت بلايل ساخطة:

- أنظر الآن ما جعلتني أفعل.

كانت الصفحة الأولى التي خمّصتها الحرارة قد تشققت من كل النواحي، فأخذت تفحصها بعينين مذعورتين.

- لقد طلبت إليك أن تتركي بقية الدفاتر إلى غد.

رفعت جاي وجهها إليه وصاحت به غاضبة:

- ما كان لهذا أن يحدث لو أنك لم تحم فوقي، تصرخ بتعليماتك. ابتعد عني وقم بعملك ودعني أقم بعملي بسلام.

فجأة تهدج صوتها وكادت تبكي، إذ سيكون حظاً جهنمياً لو أنها هي التي تتسبب في إتلاف السجل، وهي التي أخذت توصي لايل بكل تلك اللهفة بأن يحاذر في إمساك الدفاتر، والأسوأ من ذلك أن يكون موجوداً ليشهد تعثرها.

عادت تصرخ: «ابتعد عني» ثم أخذت أصابعها المرتجفة تسوّي المنطقة المعطوبة لكي تتمكن من إغلاق الغلاف عليها فلا تتسبب بالمزيد من التلف لها.

- هل لك أن تستلم مكاني هذا يا بوب؟

- نعم يا سيدي! اترك الحبال مدلاة، لقد ربطت اللوح من ناحيتي الآن.

لم تسمع جاي ما حدث فوقها من تبادل المكانين، لكنها شعرت بوجه لايل يختفي من الفجوة، كما أسرع ضوء النهار بالزوال عندما غطى بوب الفجوة باللوح البلاستيكي جاعلاً إياها تشعر بالوحدة بدلاً من الشعور بالراحة للانفراد الذي توفّر لها.

مسحت عينيها بقفا يدها بفروغ صبر رافضة هذا الشعور، مركزة نظرها على الصفحة المعطوبة التي لم تكن حالتها سيئة كما كانت تخاف.

عادت تسوّي الأطراف برفق بالغ مرة أخرى ثم أغلقت الغلاف عليها، ووضعته بين أقرانه في صندوق الإنقاذ.

- ليكن هذا آخر واحد هذه الليلة.

- آه!

شهقت جاي مجفلة لأنها لم تسمع صوت اقتراب لايل منها، حتى وقف مشرفاً عليها ماداً يده إليها يجذبها لتقف على قدميها.

- قمت بما يكفي من العمل ليوم واحد.

ضمها بيد إليه، بينما انحنى يغلق باليد الأخرى غطاء صندوق الإنقاذ بحدة، ثم يقول: «إنك متجمدة من البرد».

- لا يمكن تجنب هذا.

لكنها لم تعد تشعر بالبرد، إذ أدفأتها يد لايل وجعلت خفقات قلبها تتسارع بعنف. وفي هذه اللحظة شعرت بالرغبة في عناقه، لكنها وضعت يديها خلف ظهرها تمنعهما من الحراك، وراحت تجادله بعناد: «عليّ تجهيز الدفاتر لكي يأخذها العمال معهم غداً إلى «تشستر».

- سيكون لديك وقت كافٍ عند الصباح.

قالت تذكره بفظاظة:

- لكنك تريد مني أن أرافقك في الصباح إلى المدينة لشراء ملابس للطفلين، ولا يمكنك أن تحصل على الأمرين.

- أنا نفسي لن يمكنني الذهاب قبل انتهاء حلب الأبقار. يمكنك إنهاء الدفاتر أثناء وجودي في مكان الحلب.

رتب لها وقتها بسهولة وثقة، وهذا ما جعل قبساً من الثورة يشتعل في داخلها.

- قد يكون هناك أكثر من مجرد دفاتر للإرسال إلى «تشستر».

تمنت بحرارة لو يمكنها أن تضع نفسها في صندوق الإنقاذ لكي تذهب إلى تشستر هي أيضاً، وعندها تنقذ كرامتها، إن لم يكن مشاعرها.

- يجب مراجعة بقية محتويات المكتب.

أشارت بيدها إلى المكتب القديم الطراز، وخزانة كتب أخرى تحتل معظم مساحة الجدار في الناحية المقابلة من الغرفة وكلها تضررت بالحريق ومياه الإطفاء، وكلها تحتاج إلى عنايتها.

قال وكأنه يحاول إقناع صبي عنيد، مما زاد في غضبها:

- لا يمكن القيام بكل شيء في وقت واحد. عليك أن تكوني راضية عن إرسال السجلات أولاً، على أن يتبعها كل شيء آخر فيما بعد.

وعندما رآها توشك على الكلام، أضاف بحزم:

- سأراجع أنا بقية محتويات المكتب معك شيئاً فشيئاً، عندما يكون لديّ وقت.

قالت ساخرة: «لا يمكن للعمل أن ينتظر حتى يكون لديك وقت.. فأنا غير مستعدة للبقاء هنا إلى وقت غير محدّد. أنسيت أن لدينا أعمالاً أخرى في غير منزلك هذا».

تابعت تقول:

- تتوقع شركة التأمين تقويمي في وقت مناسب.

قال لها يطمئنها: «لن نجعل شركة التأمين تنتظر».

أتراه يوافقها على ما تقول أم يسخر منها؟ لم تستطع جاي التأكد.

- وبعد ذلك، هناك معاينة بقية غرف المنزل.

قالت ذلك تملأ به الصمت الذي يجب أن لا يسود بينهما، لأنه إذا حدث سيكون مليئاً بكلمات لا تجرؤ على التفوّه بها، وآمال يجب أن تبقى مكتومة لا ينبغي كشفها له.

عادت تقول: «ينبغي أن يكون هناك بيننا عقد يغطي الأعمال في هذا المنزل كافة».

أما العقد الذي يريده قلبها، فهو لا يحتاج إلى أكثر من كلمتين بسيطتين هما (لقد قبلت).

- إذا كان هذا يريح ذهنك، سأبعث برسالة بهذا الشأن إلى أبيك أطلب فيه أن يتابع العمل إلى أن نوقع العقد بيننا. وفي نفس الوقت، عقد شفهي

بيننا فيه الكفاية.

- أتعني... عهد رجال؟

كان هذا قولاً سخيفاً منها. حاولت الابتعاد عنه وقد ازدادت خفقات قلبها.

بدت ضحكة سريعة في عينيه.

- عهد الرجال يكون بالمصافحة، وهذا لا يتلاءم معنا أنا وأنت. أليس كذلك؟

ضمها إليه بشدة بحيث لم تستطع الإفلات منه، وببطء، جعل عناقه بديلاً للمصافحة باليد.

أخيراً سألها: «هل في اتفاقنا هذا ما يرضيك؟»

وقبل أن تجيب بنعم أو لا، عاد يعانقها ثانية بحيث لم تستطع التفوه بجواب. استجابت له وهي تعلم، في أعماقها، أن ذلك جنون منها. فسماحها له بأن يعانقها لا يعني عقد اتفاق عمل بينهما، ولكنه يعني مصيرها كله، ذلك لأنه لم يعد يهم الآن الوقت الذي تغادر فيه «ميلبول هال»، أو مقدار ابتعادها، فقد أدركت أن خيال لايل سيكون معها على الدوام.

* * *

أخذ اللوح البلاستيكي يخفق بشكل رتيب تحت وطأة الريح القارسة وكان صوته يشبه وقع ألوف من الأقدام الصغيرة، مبرراً بذلك إصرار لايل على تغطية السطح قبل حلول الظلام. في هذه الليلة هطل المطر وكأنه من أفواه القرب، فتقلبت جاي في فراشها تشدّ أغطية السرير إلى ما فوق رأسها محاولة صدّ ذلك الصوت عبثاً.. وكذلك الصورة السيئة للمزيد من التلف الذي كانت ستحدثه هذه الليلة الممطرة لمحتويات الغرف المكشوفة لو أن إرادتها هي انتصرت.

بين لحظة وأخرى، كان صوت خفقة فاترة يتخلل بقية الأصوات،

وكأن أحد الحبال المتصلة باللوح البلاستيكي قد ارتخى.

- جاي.

لا بد أن تيم قد سمع صوت تقلبها على السرير، فهمس يناديها من خلال الباب الموصل بين الغرفتين، فقفزت من سريرها على الفور ومدت يدها إلى معطفها المنزلي.

- ما هذا؟ ما الذي تفعله خارج سريرك؟

- أريد أن أشرب، ولكنني لم أعثر على مفتاح النور. لقد اصطدم إبهام قدمي بشيء ما.

تحول الهمس إلى لهجة حزينة، وأخذ الصغير يقفز على قدم واحدة ليثبت إصابته.

- لا بأس.. ادخل تحت أغطيتك وسأحضر إليك الماء لتشرب.

أعادته إلى سريره، وملأت إبريقاً بالماء.

- سأجلس معك أثناء شربك.

سألها وهو يعيد إليها الكأس الفارغة: «ما هذا الصوت؟»

- إنه اللوح البلاستيكي الذي وضعه بوب على فجوة السطح في الجناح القديم.

أدركت جاي بعطف غامر، أن النوم في بيت غريب قد يكون موحشاً بالنسبة إلى طفل، فقالت له تصرف ذهنه عن ذلك:

- ليس في هذه الغرفة مفتاح للنور لأنه جناح قديم للأطفال، ومفتاح النور في غرفتي.

- ماذا أفعل لو أردت أن...؟

- نادني أسمعك... وغداً سأشتري لك مصباحاً يدوياً، لن يصاب إبهام قدمك مرة أخرى.

- هل تشترينه لي أحمر اللون؟

ابتسمت جاي في الظلام: «إذا وجدت واحداً بهذا اللون، ومعه بطارية احتياطية أيضاً».

- آه، هذا رائع.

- والآن، يجب أن تنام.

قبلته شاعرة بالرضا بعد أن أصبح لديه ما يشغل تفكيره عن الضوضاء في الخارج.

أحكمت الغطاء حوله، ثم تركته ليحلم بما ستحضره له غداً.

حدثت نفسها تحسده، وهي تعود بقدميها الحافيتين إلى سريرها.

- ليت بإمكاني النوم بهذه السهولة!

عندما وصلت إلى فراشها وجدته بارداً فارتعشت وأسرعت تدس جسمها تحت الأغطية، وتمنت لو أنها قبلت قربة الماء الساخن التي عرضتها مارتا عليها.

التقطت أذناها صوت فتح باب في آخر الرواق.. إنه باب لايل. ثم انغلق بيد محترسة، ثم تبعه صوت وقع أقدام حافية أخذت تسير متسللة في الرواق نحو بابها.. أترى ستتوقف القدمان إذا أدرك لايل أنها مستيقظة؟ لكنهما استمرتا في السير ثم أخذتا تهبطان الدرج. بعد ذلك سمعت صوت مفصل باب المطبخ، أعقبه صمت ثم صوت مألوف عندما أدخل لايل قدميه في حذاء مطاطي... تذكرت ما قاله لها مرة (إنني غالباً ما أخرج في الليالي... لأحضر ولادة النعاج).

نظرت جاي إلى ساعتها بجانب السرير، فإذا هي تشير إلى الثانية والنصف.. تحولت عيناها إلى النافذة التي أزاحت ستارتها عندما جاءت لتنام، فتسرب ضوء باهت من خلال المربّع الزجاجي. قطبت جبينها لأن الماء كان يسيل على الزجاج، تقذفه الريح. إلى متى يبقى لايل في الخارج حيث البرد والمطر، منكراً على نفسه الراحة لكي يساعد قطيعه؟ وفجأة، شعرت جاي بالحنين إلى الذهاب معه، لتشاركه البرد والمطر والعمل. وتشاركه أيضاً لحظة العجب التي تصاحب ولادة أول ثغاء لحمل وليد، لكي تجعل من هذه الخبرة، رباطاً ثميناً بينهما.

ترددت لحظة. ولكن حتى لو تمكنت من ارتداء ملابسها واللحاق به في

www.elromancia.com

الوقت المناسب، فهناك تيم وهولي اللذين عليها أن تضعهما في الاعتبار، إذ لا يمكنها أن تتركهما بمفردهما. الآن أدركت أن لايل كان على حق حين رفض إيواء ابني أخته إلا إذا بقيت هي لترعاهما، كما كان على حق في وضع اللوح البلاستيكي بدلاً من الانتظار إلى الغد لحين نصب الهيكل.

وعندما نزلت جاي إلى غرفة الإفطار في الصباح التالي، كان هناك حملان في سلتين موضوعتين قرب المدفأة.

تلوى قلب جاي حناناً لرؤية الحملين الضعيفين: «هل هما يتيمان؟»

أجابت مارتا: «لا، ثلاث نعاج وضعت كل منهما ثلاثة حملان، ولأنه كان من الصعب حمل الأم على إرضاع الثلاثة، أحضر السيد لايل أضعفها إلى هنا، وقد فكر في أن تيم وهولي قد يحبان أن يرضعاهما، ليمنحهما بذلك متعة أثناء وجودهما في المنزل، لعدم قدرتهما على الخروج للعب، كما أنه ليس لديه الوقت الكافي للعب معهما».

لم يظهر لايل أية إشارة للعب مع الطفلين على الإطلاق، ولكن.. هل هي عادلة بحقه؟ أخذ ضميرها يعنفها، فلم يمض على إحضارها تيم وهولي إلى منزل خالهما أكثر من ثمان وأربعين ساعة، وإذا بالأحداث تتوالى بسرعة لم تدع معها وقتاً للعب.

لم يكن منتظراً من لايل أن يحاول إزالة سأم الولدين. ربما لم يكره وجود الولدين، كرهها هي فقط..

ـ سأذهب إلى المكتب لأنهي تعبئة بقية سجلات المزرعة في الصناديق.

فقالت مارتا: «لن يكون الإفطار جاهزاً قبل نصف ساعة».

ـ هذا الوقت يكفيني.

هربت إلى حيث السلوان في عملها، ولكن عندما أصبح آخر سجل في الصندوق وأغلقت غطاءه، هربت مرة أخرى عائدة إلى دفء المطبخ.

كان لايل هناك قبلها.

ابتسمت لها مارتا، قائلة:

ـ لقد أعطيت الطفلين فطورهما، يا آنسة جاي. كانا مستعجلين لإطعام

الحملين.. أحضري حساءك وتناوليه بجانب المدفأة، إذ تبدين متجمدة من البرد.

أنكرت جاي ذلك، قائلة: «لا أشعر بالبرد».

ألقى عليها لايل نظرة سريعة.

ـ ستبردين إذا تناولت فطورك عند المائدة، وأنا أيضاً سأتناول فطوري بجانب المدفأة لكي أتمكن من مراقبة إطعام الحملين.

وركع بجانب هولي:

ـ أطعميها بهذه الطريقة. أمسكي زجاجة الحليب هكذا، وأنا سأمسك الحمل.

ابتسم للطفلة فبادلته الابتسام. ثم حمل لها الحمل لترضعه، وإذ أخذت جاي تنظر إليهما من حيث تجلس، شعرت بعينيها تدمعان. لم يكن تصرف لايل هذا متصنعاً لمجرد التأثير فيها بل كان واضحاً أنه نسي كل شيء عنها، إذ كان يتحدث إلى الطفلة وقد غطت المتعة ملامحه. كان وهولي مستغرقين في العناية بالوليد الجديد. وشعرت جاي بغصة.

عندما تعالى الطرق على الباب الخارجي، ردّت مارتا قائلة: «ادخل».

بدا كبير العمال وقال يخاطب جاي:

ـ أخذت ورقتك الملصقة بصندوق الإنقاذ، وفيها أنك تريدين رؤيتي لشيء ما، يا آنسة جاي.

ـ آه! نعم.

وتذكرت ما كانت تقوم به قبل الإفطار، ثم أخذت تفكر بسرعة وعنف بما كانت تريد أن تقول للرجل، وأخيراً تذكرت فهتفت مسرورة: «بشأن المحفظة الجلدية التي تحوي تخطيطاتي عن عقد الخليج.. أريد منك أن تأخذها معك حين تعود إلى «تشستر» ثم تعطيها لأبي».

أومأ الرجل قائلاً:

ـ سأهتم بذلك، لقد بدأنا العمل باكراً هذا الصباح. الجوّ صحو وهذا يساعدنا على الانتهاء عند الظهر، والألواح الجديدة ستحمي ما بقي من

الغرف المتضررة حتى يبدأ العمل في إصلاحها.

ثم التقط المحفظة الجلدية عن المائدة وهو يتابع قائلاً: «سأضع هذه في القان الآن كيلا أنساها. إن كنت لا تريدين شيئاً آخر، يا آنسة جاي، فسأذهب الآن لمتابعة العمل ما دام الجوّ حسناً».

أجابت: «لا شيء، شكراً».

***

٥ ـ تؤلمها ابتسامة

أنهى خروف هولي امتصاص زجاجة الحليب، ثم نهض لايل من ركوعه بجانبها، وقال مخاطباً جاي:

ـ هل أنهيت تعبئة السجلات في صندوق الإنقاذ؟

ـ نعم! وهذا كاف حالياً.. اليوم سيحملها العمال معهم عندما يعودون إلى تشستر.

قالت مارتا بحيرة: «لا أدري ما فائدة هذه السجلات إذا كان من غير المستطاع قراءتها».

أجابت جاي بصبر: «هذا صحيح، ولكن هناك تصوير خاص هو تصوير الحروف التي لا تكاد ترى بالعين البشرية، ثم إخراج نسخ جيدة منها».

لكن مارتا لم تتأثر بإعجاز العلم الحديث هذا.

ـ إذا كان هذا التصوير قادراً على التقاط الكتابة الصعبة القراءة، فيا ليتنا نكتشف في هذه الكتابة ما يدلنا على المكان الذي اختفت فيه صورة غاونت! إذ يبدو لي أن السيد لايل سيحتاج إلى بيعها ليدفع النفقات.

نظرت جاي إلى لايل رافعة حاجبيها باستفهام:

ـ صورة غاونت؟ لقد حدثتني بيث عن تاريخ المنزل هذا، ولكنها لم تذكر شيئاً عن تلك الصورة. ولكن إذا كانت لديك وقد أصابها الضرر، يمكننا إصلاحها لأجلك هي أيضاً.

قال بعينين باسمتين: «كلام سليم، وهو يثبت أن لديك روحاً مهنية.

www.elromancia.com

آسف أن أخيب أملك، ولكن ليس هناك أية صورة».

ـ لكن مارتا قالت لتوها...

قاطعها: «سأشرح لك الأمر في الطريق إلى المدينة. لقد أنهيت أنا الحلب، وأنت أنهيت تعبئة سجلاتك.. متى ستكونين جاهزة؟»

ـ بعد عشر دقائق أغيّر فيها ملابسي وأحضر دفتر الشيكات.

تملكها الندم ولكن بعد فوات الأوان، فقد بدت كتلميذة مدرسة عرض عليها القيام بنزهة غير عادية.. أخذت تفكر في أنه كان عليها أن تطلب مهلة نصف ساعة، ثم تتركه ينتظر، ولكنها بدلاً من ذلك...

تلاشى الابتسام من عينيه وعاد الفولاذ إليهما:

ـ يمكنك أخذ عشر دقائق لتغيير ملابسك، ولكنك لن تكوني بحاجة إلى دفتر شيكات.

تبدد سرور جاي بهذه النزهة إزاء جفاء صوته، وحدثت نفسها بأسى بأن هذا قد أعادها إلى مكانها، ثم قالت متجنبة النظر في عينيه:

ـ لن أتأخر.

هرعت إلى الطابق العلوي حيث غرفتها وقد عاد إليها الخوف من هذه الرحلة.

لقد ذكرت دفتر شيكاتها دونما تفكير، إذ كانت تفترض نفسها مسؤولة عن الطفلين. ولكن بجملة قصيرة جعلها لايل تعلم أن الطفلين هما مسؤوليته، وهو الذي ينفق عليهما، أما هي فقد عادت غريبة.

عزّت نفسها بأنها ستشتري لتيم المصباح الذي وعدته به، وأن لايل لن يستطيع منعها من ذلك.

أخذت تمشط شعرها بالفرشاة بغضب بالغ، لكن عليها أن تهدئ من أعصابها، فهذا رأسها الذي تحت الفرشاة وليس رأس لايل. ثم وضعت الفرشاة، والتقطت عقداً ذهبياً وضعته حول عنقها تخفف بذلك من قتامة لون الكنزة التي ارتدتها. لكنها تركت طقمها الصوفي العاجي دون زينة، وبعد عشر دقائق بالضبط كانت تهبط السلم إلى حيث ينتظرها لايل وقد

عادت إليها بعض ثقتها بنفسها لأناقتها البادية.

ـ أنا جاهزة.

لم يكن هناك ما يجعلها جاهزة لمواجهة رحلة إلى المدينة مع لايل وحدهما.. كان لايل جاهزاً ينتظرها. ألقى عليها نظرة شاملة أجابته عنها بخفقان في قلبها.. وبدا بالغ الوسامة.. عضت شفتها لعل ذلك يساعدها على تهدئة نفسها ويبدد الدوار من عينيها.. بدت سترته البنية والبنطلون الملائم لها بسيطين، ولكن تفصيلهما بالغ الأناقة، كما كان قميصه من الحرير الخالص.

ـ فلنذهب!

ساعدها على الصعود إلى السيارة «الرانج روفر» فغاصت جاي في المقعد الوثير وشدت الحزام حولها، محاولة أن تقفله بأصابع متوترة. بعدما جلس لايل خلف المقود نظر إليها يسألها: «ألم تستطيعي قفله؟»

ـ يبدو ملتوياً بشكل ما ولكنني لن أزعج نفسي به.

ثم ألقت به جانباً.

قال لها بلهجة مسيطرة: «عليك أن تضعيه حولك ما دمت معي». ثم مال نحوها يساعدها وهو يقول: «الحام القفل متصلب قليلاً لعدم الاستعمال».

لكن جاي فكرت ساخرة بأن أصابعها هي المتصلبة بسبب الخوف.

ـ لا أظن أن عمك كان ينقل معه ركاباً.

لم تكن تهتم بما إذا كان صاحب المنزل الراحل يصحب معه أحداً في السيارة، أم لا! ولكنها أرادت موضوعاً تركز عليه ذهنها، عندما امتدت يدا لايل حولها يشدّ لها الحزام.

ـ ارفعي يدك من فوق الحزام.

جاءها صوته هذا من خلال ضباب لأنها لم تكن منتبهة إلى سوى خفقات قلبها المتسارعة.

ـ ليس هذه اليد، بل الأخرى.

كانت عيناه مصممتين على فصل العقدة التي أحدثتها في حزام المقعد. وعندما لم تستجب له رفع يدها بنفسه وأقفل الحزام وقال: «الرانج روڤر لم تكن لعمي بل هي ملكي، وقد أحضرتها معي عندما جئت من الجنوب».

حزام المقعد الذي بجانبه لم يُستعمل قط، كما أن السيارة لم تكن جديدة كما لاحظت جاي. توقف قلبها فجأة عن الخفقان وأخذ يغني بدلاً من ذلك.

حاولت أن تقنع نفسها بأن هذا لا يعني شيئاً وشعرت بالذعر للراحة التي عمت نفسها بسبب معرفتها أن المقعد المجاور لمقعده لم يُستعمل قط من قبل... شعرت برغبة في الغناء تشارك تلك الموسيقى في قلبها. حاولت أن تقنع نفسها أن لايل لو نقل معه صديقة في هذه السيارة لتأكد من سلامتها ولعقد لها الحزام قبل تحرك السيارة بهما، أو ربما لدى صديقته سيارة. فمن الصعب أن يصدق الشخص أن رجلاً بوسامة لايل يمضي السنتين الأخيرتين دون صحبة أنثوية، كما أنه أصر عليها بربط الحزام قبل تحرك السيارة. لكنها حذرت نفسها من أن لدى لايل سبباً آخر لاهتمامه هذا، وهو أنه مسؤول عن سلامتها ما دامت تعمل عنده.

ـ هل أنت مستريحة؟

إذا كان تمزقها بين الحب والكراهية، الانتعاش واليأس، الرقة والاستياء، يعتبر راحة لها، فهي مستريحة.

ـ نعم، مستريحة كلياً، شكراً.

بدا صوتها مؤدباً كصوت هولي، فالتوت شفتا لايل، ولكن جاي لم تر ذلك لأنها كانت منشغلة بالنظر في الزجاج الفسيح أمامها في محاولة منها لتجنب النظر إلى لايل..

ـ سنبطئ في سيرنا لندع بوب يسوق القطيع من البوابة أولاً.

قال لايل ذلك وهو يخفف من سرعة السيارة ليسمح للقطيع الأسود والأبيض بالتقدم إلى المرعى.

قالت بصوت ملؤه الراحة لوجودها في مكان آمن: «أفضّل أن أنظر إلى

القطيع من داخل الرانج روڤر على أن أنظر إليه من قمة جدار المزرعة».

قال ضاحكاً: «عندما تتعودين عليها، يتبدد خوفك. لا يمكنك أن تشعري بالخوف من أحد يسمّى ديزي، أليس كذلك؟»

ابتسم لها، فأرغمت نفسها على مبادلته الابتسام. لكن شفتيها كأصابعها كانتا متصلبتين..

قالت: «إن ألوانها لا تنسجم مع لون المنزل الحجري».

قال ضاحكاً: «أتعنين أن لون أبقاري يناسب أنحاء تشستر أكثر مما يناسب منزلي هنا؟ ربما كلامك صحيح، ولكن القطيع باق هنا. أما أنت فعليك أن تكتفي بإرسال سجلاتها إلى تشستر بدلاً منها».

القطيع باق هنا، أما هي فلا...

ـ عم كانت مارتا تتحدث؟ يبدو أنها تظن أن بإمكان الميكروفيلم أن يظهر شيئاً عن... عن ماذا؟

ـ عن صورة غاونت.

أدهشها أن يميل رأسه إلى الخلف ضاحكاً، فأخذت تنظر إليه بدهشة.. كان يبدو خالي البال أصغر سناً وهو بعيد عن العمل، وكأنه ينوي استغلال تلك الساعات القليلة من الفراغ كأحسن ما يستطيع. شعرت رغماً عنها بالراحة فأجابته بابتسامة.

هتف هازلاً: «تلك الحكاية القديمة!»

سألته وقد بانت خيبة الأمل في صوتها:

ـ هل هذا كل شيء؟ مجرد حكاية قديمة؟

تحرك لايل بالسيارة وهو يرفع يده لبوب بالتحية، ثم قال ضاحكاً:

ـ آسف لخيبة أملك.. لقد نشأت على هذه الحكاية حتى اعتدت أن أحلم بالعثور على الكنز المخبوء تحت الأرض ثم باسترداد ثروة الأسرة ولكنني كنت صغير السن حينذاك..

لوت جاي شفتيها وهي تفكر في أنه لا يبدو في حالة من الفاقة والدليل سيارته الفارهة وأناقة ملابسه.

قال: «كانت الحكاية مبنية على الواقع.. ولكن الأساطير التي تحاك حول هذه، غالباً ما هي تمنيات من المفلسين من أجدادي».

قالت متوسلة: «أخبرني! أنا أحب سماع القصص».

- في يوم من الأيام...

ابتسم لها تلك الابتسامة البالغة الحلاوة.. في بداية تعارفهما، تساءلت جاي عما إذا كانت ابتسامته تضيء عينيه، كما هو الحال مع شقيقته بيث. وها هي ذي ترى الآن أنها كذلك، ولم يخلف لها هذا الاكتشاف سوى الألم.

عاد يقول: «في يوم من الأيام، أحضر صاحب «ميلبول هال» رساماً ليرسم صورته».

لم تهتم جاي للهجته التي حاول إغاظتها بها، وكأنه يستمتع بالقصة مثلها.

قالت تستحثه: «استمر».

- كان جدي ذاك على شيء من الثراء، لذا استأجر أشهر رسامي ذلك العهد للقيام بذلك العمل. والواقع أنه استأجر رسام قصر الملك تشارلس الأول، وهو السير أنتوني ڤان دايك.

أجفلت جاي، والتفتت إليه بسرعة تسأله غير مصدقة:

- من؟ هل قلت «ڤان دايك»؟ لا بد أنك تمزح.

- ليس هذا مزاحاً. قلت لك إن الأسطورة تقوم على واقع، ونحن نعلم صحة ذلك من مستندات الأسرة.

- ولكن.. ڤان دايك؟

- نعم، حتى إنني رأيت قائمة تحتوي على الأجر في سجلات المزرعة.

- أهي السجلات التي أرسلتها إلى تشستر؟

شعرت جاي بالغثيان وهي تفكر في أن النار حمصت مثل هذه المستندات التي لا تثمّن.

- لا، هذه الدفاتر هي سجلات العم كينتين، وهي تغطي تاريخ المزرعة منذ استلمها. أما أوراق الأسرة القديمة جداً فموجودة كلها في صندوق

مستندات العقارات في المكتب. وهو أول ما تفقدته بعد الحريق، ومع أن الصندوق نفسه كان متضرراً بشكل بالغ، إلا أن محتوياته سالمة... وسأريك إياها لأنها ستثير اهتمامك. ما تكلفته الصورة كان شيئاً لا يصدّق، إذا حسبت ما يساويه هذه الأيام.

فهتفت جاي: «كذلك اختفاء صورة من رسم ڤان دايك دون أثر، هو شيء لا يصدق.. أليس هناك سجل يذكر ما حدث لها؟ حتى ولا إشارة في مكان ما من السجلات؟

- لا شيء، ما عدا تسجيل وجودها في شكل قائمة الحساب بالأجرة التي تتضمن وصلاً موقّعاً من الرسام نفسه.

- إذن فالقائمة نفسها ذات قيمة.

- ليست بقيمة صورة رسمها ڤان دايك.

- وطوال ذلك الزمن، ألم يستطع أحد أن يكتشف مكانها؟

- ليس هذه الأيام. أظن أن كل واحد من أسلافي على مدى الثلاثمئة عام، حاول أن يبحث عنها. ولكن لو نجح واحد منهم لترك أثراً ينمّ عن ذلك.

- حتى ولا مجرد ظن منهم بمكان الصورة؟

ألقى لايل عليها نظرة هزل:

- لا تخبريني بأن الداء وصل إليك أنت أيضاً.

وضحك، فشعرت بوجهها يحمر خجلاً، وقالت محتجة: «كنت فقط...».

فقال ضاحكاً: «لا لزوم لهذه الحساسية من جانبك، الرغبة في العثور على الكنز المدفون ساورتنا جميعاً حيناً من الوقت. ولكن حتى ولو مشطت المنزل بأجمعه بمشط ناعم الأسنان، فأنا أشك في أنك ستعثرين حتى على إطار صورة.. تذكري أن أسرتي سبقتك بثلاثمئة عام. وهكذا لا تدعي الأحلام تفترسك».

لكن أحلامها لم تكن عن صورة ضائعة وإنما عن هدف ضائع...

www.elromancia.com

وجاهدت لكي تعود بذهنها إلى ما كان يقوله لايل.

ـ أعتقد أن الصورة ذهبت مع فضيات الأسرة في ذلك الحين. وذلك لزيادة أموال أنصار الملك أثناء الحرب الأهلية.

قال هذا مفكراً، بينما لوت جاي شفتيها بمرارة. لم يكن ذلك هو الهدف الضائع الذي شغل ذهنها على كل حال.

عاد لايل يقول: «جدي، صاحب الصورة، أنشأ كتيبة جند تحت رايته، ثم سار بها إلى مساعدة الملك تشارلس الأول في «نيزبي»، حيث خسر الملك المعركة، كما خسر جدي حياته».

ـ وأنت تظن أن الصورة...؟

ـ بيعت على الأرجح لكي تساعد في إطعام وتسليح جنوده. وبما أن الرجل الوحيد الذي كان يعلم ما حدث لها، قد مات في «نيزبي»، فمن غير المحتمل أن نعلم حقيقة نهايتها.

ـ لعل جدك أفضى بالأمر إلى زوجته، وربما كان لديها دفتر مذكرات كعادة نساء الطبقة الراقية في تلك الأيام.

قال لايل يخيب آمالها ببشاشة وعدم اكتراث: «ليس هناك دفتر مذكرات.. يقول التاريخ إن جنود كروميل مكثوا فترة في منزلنا، ربما للراحة من عناء المعركة. وعندما ذهبوا أخيراً، كان المكان من الفقر بحيث كان للمرأة المسكينة ما تعمله غير كتابة المذكرات».

ـ من المدهش أنهم سمحوا لها ولأسرتها بالبقاء في المنزل بعدما قاتل زوجها في الجانب الخاسر.

ـ بعد أن سلبها الجيش المحتل مجوهراتها، وأكلوا حيواناتها في المزرعة، ونهبوا كل نفائس البيت، ربما فكروا في أن ما بقي لا يستحق اهتمامهم.. كان المكان فعلاً في حالة خراب، وقد مضت مئة سنة قبل أن تبدأ المزرعة بالانتعاش.

«المزرعة محظوظة حقاً». هذا ما حدثت به نفسها، إذ من غير المحتمل أن ينتعش قلبها الذي غزاه لايل وسلبه كل ما يستحق السلب، مثل ذلك

الجيش المحتل في ذلك الزمن البعيد.

ـ ما هذا؟ يبدو وكأن حادثاً وقع في هذا الطريق.

أبطأ لايل السيارة نزولاً عند طلب رجل كان واقفاً في وسط الطريق.

سأله لايل من خلال نافذته المفتوحة: «ما الذي حدث؟ هل يمكننا المساعدة بشيء؟»

ـ شجرة ساقطة في الناحية الأخرى من المنعطف، شجرة سقطت في وسط الطريق والرجال يزيحونها من الطريق يا سيدي. الطريق مفتوحة من ناحية واحدة يا سيدي. تابع سيرك إنما ببطء.

أشار لهما الرجل إلى الأمام، وإذا بالشجرة الساقطة تلوح لهما وبجانبها سيارة شحن، ومجموعة من الرجال منشغلة بها.

قال لها لايل وهو يقفل باب السيارة: «أين نذهب أولاً؟»

ـ هذا راجع إليك، فأنا لا أعرف المدينة.

ـ ابقي قريبة مني، فهذا «يوم السوق» وهو سيصبح مزدحماً قبيل الظهر. إذا أضعنا بعضنا بعضاً، عودي إلى موقف السيارات.

ثم أدارها بيديه لكي ترى لافتة الفندق «روندهاد».

قال: «سنتناول الغداء هنا بعد فراغنا من التسوق».

ـ الغداء؟ ألست مستعجلاً للعودة؟

أجاب: «ليس قبل وقت الحلب هذا المساء. وبذلك يمكنك التفرج على المدينة أثناء وجودنا هنا.. إنها تستحق المشاهدة».

عمّت الكآبة نفسها وفكرت في أنه يعني في الحقيقة (أثناء وجودها). فهي لن تبقى هنا مدة طويلة.. أظلمت إشراقة وجهها، ثم سارت بجانبه بصمت كئيب.

ـ الحق معك بالنسبة للزحام.

كانت ربات البيوت المثقلة بأكياس التسوق تسير على الأرصفة الضيقة، فاندفعت جاي تقف في عتبة باب محتمية من الاصطدام بهن وذلك للمرة الثالثة.

قالت ساخطة وهي ترى امرأة تسير مثقلة بحملها: «كان على رجالهن أن يساعدنهن في حمل كل هذه الأكياس».

أجاب لايل: «أظن أن رجالهن في السوق في مثل هذا الوقت».

- لا أشك في أنهم يقومون، بدورهم، في حمل بضائع الأسرة بعد أن ينهوا بيع بضائعهم.

جذبها من عند عتبة الباب، واضعاً ذراعه حولها يحميها، قائلاً:

- سيري معي في عرض الشارع الذي يغلق بوجه السيارات أيام السوق.

كان الشارع ضيقاً خشن التبليط، فهو زقاق أكثر منه شارعاً عاماً. وتكاد أفاريز البيوت على الجانبين تتلاقى فوق رأسيهما، فبدا أشبه بالنفق.

قال لايل ضاحكاً من التعبير البادي على وجهها: اقتربنا فلم يعد المكان بعيداً الآن، فذلك الباب الكبير المزدوج هو مدخل أهم متجر هنا».

جعلتها ذراعه حولها تتمنى لو يمتد الزقاق إلى ما لا نهاية.

انفتح الباب بحركة آلية وهما يقتربان منه، وهناك حيّتهما موجة من الهواء الدافئ، وعندئذ أنزل لايل ذراعه من حول خصرها. شعرت ببرودة قارسة وهو يسير أمامها شاقاً طريقه في الزحام نحو سلم كهربائي متحرك يحمل إرشادات تقول: «أزياء نسائية وملابس للأولاد، الطابق الأول».

ظنتهما العاملة، كما يبدو، زوجين.

قالت: «إن ملابس التزلج للأولاد هي الأكثر دفئاً لدينا يا سيدتي».

شعرت جاي بالشكر لأنها تركت يدها اليسرى مكسوة بالقفاز، وإلا، الله وحده يعلم بما كانت ستظنه العاملة من مشترياتهما، بينما لا تضع في إصبعها خاتم الزواج... واحمر وجهها لهذا التفكير.

- فقط «أنوراك» عادياً وبنطلونات مخملية مضلعة وكنزات صوفية، هذا يفي بالغرض.

تعلم جاي أن ملابس التزلج قد تكون الأدفأ حقاً، ولكنها الأغلى ثمناً أيضاً.. لكن لايل لم يشاركها رأيها في التحفظ بالنسبة للأثمان.

- الألوان المشرقة تساعد على العثور على العفريتين الصغيرين حين

تطلبينهما.

وهكذا أضيف طقمان للتزلج إلى كومة الملابس الصوفية، واحد قرمزي لتيم، وآخر أصفر لهولي.

أردف لايل ضاحكاً: «إذا هما اختبآ في المخزن، فستشع هذه الألوان عليهما كشجرة عيد الميلاد. والآن، يجب شراء أحذية لهما بدلاً من الصنادل المفتوحة التي ينتعلانها الآن».

اعترضت جاي بقولها:

- لا يمكننا شراء أحذية لهما إلا بعد أن يقيساها.

حلّت البائعة المشكلة بأن أحضرت إليهما أحذية ماركة «ولينغتون»، وقالت وهي تلف الملابس:

- إذا كان قياسها كبيراً، يمكن وضع هذه «الضبانة» الصوفية مع جوربين صوفيين، ثم التأكد من أن الإبهامين مستريحين. إنهم ولدان محظوظان.. متى سيذهبان في عطلة؟

سألها وهو يحمل المشتريات تحت إبطه ويودع البائعة: «هل تريدين شراء شيء لنفسك؟»

- نعم... أريد..

قال: «في هذه الحالة، سآخذ هذه المشتريات إلى السيارة ثم ألاقيك بعد ثلاثة أرباع الساعة في موقف السيارات».

كان يتصرف وكأنه لا يستطيع الانتظار حتى يبتعد عنها. وهكذا تبدد كل سرورها... صرت جاي على أسنانها ثم كبحت بجهد خارق ما تبادر إلى لسانها من وصف لاذع له. وبشكل ما، أرغمت صوتها على شكر البائعة بلهجة طبيعية، ثم استدارت تنظر في أثر لايل غاضبة فهو لم ينتظر لكي يسألها إن كانت تعرف الطريق إلى موقف السيارات وأدركت أن ليس لديها الخيار لأن لايل وما يحمل قد غيّبته الآن حشود الشارين في المتجر.

لو أضاعت الطريق واضطر لانتظارها، فسيكون في ذلك درساً يستحقه.

شعرت جاي لحظة بالإغراء في أن تسأل عن مواعيد الحافلات الذاهبة إلى قرية ميلفورد، لكن التعقل عاد فمنعها ثم استسلمت على كره منها عندما تذكرت كعب حذائها المرتفع والطريق الطويل الذي عليها أن تقطعه على قدميها من الحافلة إلى المنزل.

حدثت نفسها بأنها ستتأخر قدر الإمكان، وستشتري المصباح الكهربائي لتيم. ولكن شراء المصابيح لن يؤخرها كثيراً... وسرعان ما أصبحت تملك مصباحين، واحد أحمر والثاني أصفر ليتلاءما مع لوني طقمي الإنزلاق وبطاريتين احتياطيتين، وما زال أمامها نصف ساعة لقطع مسافة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق إلى موقف السيارات.. تذكرت أنها سبق أن رأت مكتباً لوكالة أخبار عند مدخل المتجر، فاتجهت إليه مصممة على شراء مجلة، ثم أخذت تختار، بتمهل تام، بين الصحف المعروضة، وذلك كيلا تجعله يشمت بها عندما يعلم أنها وصلت قبله وأخذت تنتظره.

لايل؟ وأخذت تحدق بدهشة وهي تراه يدخل من الباب الزجاجي متجهاً نحو السلم الكهربائي... قطبت جاي جبينها.. لم يذهب إلى السوق، كما ظنت، ونظرت إلى ساعتها فازداد عبوسها، ربما كان يقصد الذهاب، فعلاً، ثم تذكر أن البائعات سيذهبن إلى الغداء بعد انتهاء عملهن الصباحي، ووجد أن لا حاجة للذهاب إلى موقف السيارات أينما كان، وهكذا قرر العودة إلى المتجر لمصاحبتها.

تمتمت عابسة فإذا كان هذا قصده فسيخيب أمله، لأنها لا تريد أن تكون مجرد بديلة لملء فراغ أي رجل في العالم، بمن فيهم لايل. أخفت وجهها بالمجلة وهي تراقبه من فوق حافتها إلى أن نقله السلم المتحرك إلى الطابق الأول.

ناولت جاي البائع النقود وهي تشكره بابتسامة مشرقة، ثم اندفعت خارجة من المتجر بأكبر سرعة ممكنة.

سارت في الاتجاه المضاد لمكان موقف السيارات... ستجعله يمضي بقية النهار في البحث عنها، وهو يستحق ذلك.

٦ ـ صقيع في القلب

حين عادت جاي إلى موقف السيارات.. كانت قد مضت ساعة كاملة منذ تركها لايل. كانت تريد أن تطيل المدة عن ذلك، لكن تنامي الشعور بالفراغ في نفسها نبهها إلى الساعات الطويلة التي مضت منذ الإفطار، كما جعل البرد القارس شعور الثورة في نفسها يتضاءل، وكم أملت أن يكون هو أيضاً متجمداً من البرد.

حدثت نفسها بأن لا حاجة تدعوها إلى المبالغة في تصرفها هذا، إذ تركته ينتظر أكثر من ربع ساعة بعد الموعد المقرر. وهكذا سارت إلى موقف السيارات دون تردد، وأخذت تنظر حولها.

لم يكن لايل هناك، فارتفعت حرارتها عدة درجات... وشعرت بالغضب يتملكها وبذعر مفاجئ يهدئ من أفكارها الغاضبة، فلم يكن لايل موجوداً كما أنها لم تستطع رؤية سيارته الرانج روفر.

«لقد عاد إلى بيته وتركني!» ولكن لم يخطر ببالها أنها سبق أن صممت على القيام بالعمل ذاته.. وقفت عند طرف موقف السيارات وهي تقبض يديها وتمنع أسنانها من الصرير برداً، وفي هذه اللحظة تمنت لو يكون لايل مثلها يتجمد من البرد.

ـ جاي... هنا!

سمعته يصيح، ورأت سيارته في نفس الوقت، وخرجت من نافذة السائق مجلة يلوّح بها.

ـ لم أرك قادمة، فقد شغلني قليلاً مقالة في المجلة.

عبست جاي.. كان على لايل أن ينتبه إلى قدومها. كان عليه أن يكون بانتظارها وهو يرتجف من البرد، ولكنه بدلاً من ذلك كان جالساً مستريحاً دافئاً في سيارته الرانج روفر، دون أن يعلم، على الإطلاق، أنها جعلته ينتظر.. ملأ الاستياء جاي من عدم اهتمامه هذا.

ـ اضطررت لنقل سيارتي لأفسح طريقاً لشاحنة.

لم يعجبها ذلك، أما لايل فترجّل من سيارته وأخذ يقفل بابها وقال ببشاشة دون أن ينتبه إلى سخطها:

ـ أراد سائقها أن يوقف شاحنته قريباً من المقهى لكي ينزل شحنته.. تعالي كلي شيئاً، إذ تبدين متجمدة من البرد.

ثم أمسك بمرفقها وسار بها نحو الفندق.

كان المفروض أن يكون هو من تجمد من البرد، وليس هي. إنها لا تكاد تشعر بيديها وقدميها، كما كان وجهها متصلباً خدراً وهذا عذر كافٍ لصمتها وهي تسير بجانبه.

ـ لقد حجزت لك المائدة التي طلبتها، سيد غاونت، إنها هناك حسب طلبك.

لانت جاي قليلاً وهي ترى أن المائدة التي حجزها لايل هي بجانب مدفأة متأججة... عندما مدت يديها مسرورة تدفئهما فوق اللهب، شعرت بالحياة تعود إلى وجهها وأطرافها، وما زاد في تدفئتها صحن حساء كثيف ساخن تبعه دجاج بالكاري، لذيذ جداً بعث الدفء في كيانها، وهذا ما جعلها توشك على الصفح عن لايل خاصة بعدما أنهت طعامها بحلوى الزنجبيل الساخنة التي علتها قشدة دسمة.

قال لايل مقترحاً، عندما انتهى الطعام:

ـ قاعة الاحتفالات في السوق تستحق الرؤية، كما أن منظر النهر آخر المدينة في منتهى الجمال.

وعندما أومأت جاي برأسها بسرور، وضع يدها تحت إبطه ثم أخذها لمشاهدة «قاعة السوق»، ومن هناك توجها إلى النهر، وظلا يمشيان حتى

وقفا معاً غافلين عن الرياح الباردة لاستغراقهما في تأمل ذلك المنظر عبر النهر.

ـ إنه نفس النهر الذي يجري في أرض «ميلبول هول» وهو الذي كان يمدّ المطحنة بالطاقة.

ـ ألا يمدّها الآن؟

لم يكن هذا يهم جاي، ولكنها أرادت أن تسمع لايل يتكلم.. أن تطيل فترة وجودهما معاً..

ـ تدور المطحنة الآن بواسطة مولّد كهربائي تحركه الريح، فالظاهر أن النهر يبطئ في جريانه في شهور الصيف، مما يجعل طاقة المياه غير كافية، لذا أضاف عمي كينتين أشرعة هوائية للمطحنة، لكنها لم تعد تُستعمل الآن لطحن القمح، بل فقط لتوليد الكهرباء.

قالت تستدرجه لمتابعة الكلام حسب استطاعتها:

ـ لكن بحيرة المطحنة ما زالت موجودة.

ـ إنها ليست بحيرة طبيعية، فسدّ النهر موجود تحت المطحنة مباشرة لكي يبقي مستوى الماء مرتفعاً حتى عندما ينخفض مستوى النهر. ولكنه، كما يبدو، لم يكن كافياً، وهو السبب الذي جعل عمي يتحوّل إلى الأشرعة الهوائية والمولد الكهربائي، وبهذا كان يمدّ المنزل والمباني الخارجية بالكهرباء، ولكنه لم يكلف نفسه عناء إفراغ البحيرة نفسها.

ـ ظننت أن المولدات الكهربائية تحدث ضجيجاً.. لكنني لا أتذكر أنني سمعته.

ـ لا حاجة للمولّد ما دامت الرياح تهب كما تهب الآن.. ولعل ما يسرّني عنك ما تشعرين به من زمهرير قارس الآن، هو أن هذه الريح توفر عليّ مالاً كثيراً ثمن المازوت.

قالت له: «أنا لا أشعر بالبرد».

وكانت صادقة وذراع لايل حول كتفيها، فلا علاقة للدفء الذي يسري في جسدها بالطعام أو بنار مدفأة «فندق راوندهاد».

لكن هذا لا يدوم، فهي تعلم أن من الجنون تدفئة النفس بالأحلام.

نظر لايل إلى ساعته فتلاشت ابتسامته:

ـ علينا أن نكون الآن في طريق العودة لكي أصل في وقت حلب الأبقار، كما علينا أن نحضر حقيبة مارتا من القرية.

كادت جاي تسأله (أي حقيبة) لكنها ما لبثت أن تذكرت أن حقيبة مارتا هي السبب الرئيسي في هذه الرحلة، فارتجفت.

ـ أنت باردة، ما كان لي أن أجعلك تقفين عند النهر طويلاً.

لكنها أخذت تفكر في أن وقوفها هذا لا يمكن اعتباره طويلاً مهما امتد به الزمن، وارتجفت مرة أخرى.

ـ هيا بنا نركض، فالركض يدفئك قليلاً.

شعرت وكأنها راكضة هرباً من السعادة.. وصلا إلى السيارة لاهثين ضاحكين، لكن ضحك جاي كان زائفاً لم يتجاوز شفتيها، إذ لم تستطع أن تلوم قلبها على هذه الدموع التي لم تجرؤ على ذرفها أمام لايل.

ـ أتستطيعين قفل حزام المقعد؟

ـ نعم، أظن ذلك، شكراً.

لم تجرؤ على المجازفة بجعل لايل يقوم بذلك نيابة عنها لأن ذلك سيجعله يقترب منها إلى حد خطر!

ـ استطعت ذلك.

أرغم اليأس أصابعها المرتجفة على إقفال الحزام ثم مالت إلى الخلف تلتقط أنفاسها.

ـ كيس ملابس الطفلين في المقعد الخلفي.

التفتت إلى الخلف فرأت عدة أكياس أخرى ضخمة الحجم... لا بد أن لايل قام بمزيد من التسوّق حين اكتشف أنها تركت المتجر، لكنه لم يذكر عودته إلى المتجر ليراها كما أنه لم يسألها أين كانت، أو عما اشترته لنفسها. شعرت بالتوتر متوقعة أسئلته، ثم اطمأنت بعدما تذكرت المصباحين، فستذكر له ذلك إذا سألها.

أوقف لايل السيارة أمام مكتب للبريد يقوم أيضاً ببيع البقالة والخضر والخردوات.

قال: «أتريدين الدخول معي لكي تعرفك مديرة البريد؟ مارتا تسكن في هذا المكان».

تمتمت جاي تقول: «الوقت لا يسمح بذلك».

ألقى عليها لايل نظرة متفحصة قبل أن يقول: «ربما الحق معك، فأنا لا أريد أن أتأخر عن موعد الحلب».

ثم دخل إلى المحل المزدحم، وما لبث أن عاد يحمل حقيبة مارتا.

هتفت مارتا وهي تمر بأصابعها على الملابس الصغيرة.

ـ آه، ما أجملها!

ـ هل نجربها يا جاي؟

ـ هل يمكننا الخروج الآن للعب في الخارج؟

فقالت مارتا: «دع خالك والآنسة ينهيان الشاي أولاً».

ابتسمت جاي: «لماذا لا؟ لن يحل الظلام قبل ساعة.. إذا ذهبتما للعب الآن ستكون شهيتكما للعشاء أقوى».

خلعت عنهما ثيابهما القطنية وألبستهما الصوفية وكان الصغيران في غاية السعادة.

نظرت مارتا إليهما بسرور:

ـ آه! يبدوان أشبه بصورتين جميلتين، ليت أمهما تراهما الآن!

وضع لايل كوب الشاي من يده وهو يقول:

ـ سترامها بعد عدة أسابيع، لكنني أشك في أن ملابسهما ستبقى بهذه النظافة والأناقة حتى تعود بيث.

أسرعت جاي تطمئن مديرة المنزل:

ـ قماش هذه الملابس قابل للغسل ولا يحتاج إلى كيّ أيضاً.

قال تيم: «إن لها جيباً كبيراً جميلاً».

ووضع قبضتيه الصغيرتين في اكتشافه الأخير.

- جيوب؟ إن ذلك يذكرني...

وفتحت جاي الكيس الذي أحضرته لأجلهما وأخرجت المصباحين: «هاك شيئاً تضعه في جيبك».

- مصباح أحمر؟ تذكرت إذن! شكراً لك. سيمكنني الآن أن أرى كل مكان، حتى في منتصف الليل.

قال لايل هازلاً: «لكن البطارية لن تستمر طويلاً».

قالت جاي باسمة وقد سرها نجاح هديتها:

- لقد أحضرت بطاريات إحتياطية.

قال تيم مفكراً:

- لا أحد يعلم، فقد أعثر على صورة غاونت مخبوءة في مكان ما في الظلام.

قالت جاي قلقة: «لا تبدأ بالتفتيش وحدك» ثم ألقت نظرة تأنيب على مارتا التي قالت نادمة: «سألاني، فأجبتهما».

سكب لايل ماءً بارداً على حماسته وقال:

- لا فائدة من البحث عن صورة ضاعت منذ زمن طويل. لقد بيعت تلك الصورة لكي يساعد ثمنها الملكيين أثناء الحرب الأهلية، كما أنشأ جدك كتيبة من الجند وسار بها إلى المعركة بجانب ملكه، ألم يخبرك أبوك بذلك؟

جعلت لهجته الواضحة المؤثرة القصة أشبه بالمأساة في نظر الصبي. فقال وقد اتسعت عيناه إثارة ورهبة: «لا، لم يخبرني قط. أخبرني أنت بها الآن».

قال ذلك متوسلاً وقد نسي كل شيء عن الصورة.

- بعد العشاء قبل أن تنام. عليّ أن أساعد بوب في حلب الأبقار حالما أغير ملابسي، فعلى كل شيء أن ينتظر إلى ما بعد الحلب، فلا تجازف في البحث في الزوايا المظلمة بحثاً عن شيء غير موجود. ربما كل ما ستجده هو عنكبوت كبيرة.

- آه!..

كانت الرجفة التي تملكت الصبي حقيقية. أما جاي فشعرت بالراحة. نظرت إلى لايل من فوق رأس الصبي وعيناها تقولان «شكراً».

لم تتوقع مثل هذا الإدراك العميق من خال الصبي الذي هو رجل وأعزب، ولم يكن متوقعاً منه مشاركتها التنبؤ بالمتاعب، وحتى الآن لم يكن يبدو عليه الاهتمام بطفلي أخته.

شكرته عيناها البنفسجيتان العميقتان بالنيابة عنها ولم تشك جاي في أنه فهم ما أرادت أن تقوله له. تشابكت أعينهما لحظة، ولكن لم يكن من السهل الوصول إلى الجواب من خلال عينيه.. أخذت تحدق إليهما وقد نسيت تيم وهولي وثيابهما الجديدة المشرقة الألوان، كما نسيت مارتا... ضاعت في عينيه العسليتين الذهبيتين اللتين أجابتاها... بماذا؟

أكان فيهما الضحك أم التهكم؟ هل كان يهزأ بها لاهتمامها بتيم أكثر مما يجب؟ أم يلومها لتجهيز الصبي بهذا المصباح، فكأنها تدعوه بذلك إلى البحث في الزوايا؟ تبددت الرقة في عينيها وحل مكانها الغضب، ولكن ما أدراها بأن مارتا ستخبر تيم بقصة الصورة؟ ها هو الضرر قد وقع الآن، وتملكت الصبي روح المغامرة، فكيف يسخر منها لايل لاهتمامها بسلامة تيم؟

- أسمع صوت بوب داخلاً بالقطيع.

- سأكون معه خلال خمس دقائق.

وارتد لايل يهبط السلم كل ثلاث درجات بخطوة واحدة، بينما أخذت جاي تطرف بعينيها وقد تخلصت من مغناطيسية نظراته، محاولة دون نجاح، تركيز عينيها على الغرفة التي بدت لها الآن خالية رغم وجود مارتا والطفلين.

- إذا لم نخرج الآن، سرعان ما يحل الظلام.

أصبح فجأة من الضروري أن تهرب من البيت قبل أن يهبط لايل إلى الطابق الأسفل مرة أخرى.

- البس قفازيك يا تيم، وضع مصباحك في جيبك.

ثم سوّت من شأن هولي، وناولتها دميتها.

سألتها مارتا باهتمام:

ـ هل ملابسك دافئة أنت أيضاً يا آنسة جاي؟

ـ لن نغيب في الخارج مدة طويلة، وسألف رأسي بالوشاح.

ربطت وشاحها تحت ذقنها ثم قالت تتحدى الطفلين: «من سيخرج من الباب أولاً؟»... ما إن سمعت صوت باب غرفة لايل في الطابق الأعلى يُغلق، حتى قفزت عن كرسيها مذعورة، ودفعت تيم وهولي من الباب متجاهلة نظرات مارتا المدهوشة، ثم أغلقته خلفها في نفس الوقت الذي سمعت فيه صوت خطوات لايل وهو يهبط السلم.

قالت للطفلين لاهثة:

ـ فلنذهب للتفرج على حديقة المنزل الخلفية.

كانت الحديقة بعيدة عن مكان حلب الأبقار، وبهذا من غير الممكن أن تصادف لايل في طريقها.

ـ سنتسابق إلى هناك.

وفي لحظة، انطلق تيم كالريح، فأمسكت بيد هولي وركضت خلفه، وهي تحتقر نفسها لهربها من لايل.

ـ فلنلعب لعبة المطاردة.

وركض تيم حول الجناح القديم من المنزل ومن ثم إلى الأفنية التي تقع أمام نوافذ قاعة الطعام والمكتب، وأمام النوافذ المحطمة الزجاج، يحيط بها الهيكل المعدني المنتصب أمامهم، وفوقهم اللوح البلاستيك يرفرف في الريح وفوقه الحديد المتعرج.

صاح تيم باستثارة: «هيا! يا هولي، اركضي». صرخ الطفلان صرخة ابتهاج ثم انطلقا من عقالهما بعد طول كبت، ووجدت جاي نفسها تنقاد معهما فتركض بقدر ما يسمح به حذاؤها العالي وحشائش الفناء الشتوية الخشنة، وما إن وصلت إلى أحد أعمدة الهيكل حتى استندت إليه ورفعت يديها ضاحكة لاهثة تطلب الرحمة، معترفة بالهزيمة حسب مقتضى اللعبة.

قالت مستسلمة: «لا أستطيع الركض خطوة أخرى.. أنت أسرع مني

بكثير».

ـ عندما أحصل على طائرتي الورقية، سأسرع أكثر. قال لي بوب إنني كلما أسرعت بالركض، ارتفعت الطائرة في الجوّ حتى تصل إلى الغمام.

وبسط يديه دائراً حول نفسه.

قالت جاي ضاحكة:

ـ إذا شئت أن تطير طائرتك بهذا العلو، يجب أن يكون لديك خيط طويل جداً.

أخذت هولي تغني: «أعلى، وأعلى..» وبسطت ذراعيها وأخذت تدور حول نفسها كما فعل أخوها، رغم ساقيها السمينتين.

ـ أمسكي دميتك جيداً، يا هولي!

لكن تحذير جاي جاء متأخراً. لأن هولي، في لهفتها للدوران حول نفسها بنفس سرعة أخيها فقدت توازنها وتعثرت فأفلتت دميتها من بين يديها، وانقذفت في الجو كالصاروخ، فتأوهت جاي لأنها رأت الدمية تختفي بين اللوح البلاستيكي واللوح الحديدي المتعرج الذي يشكّل السطح المؤقت.

صاحت هولي منتحبة: دميتي!

تمنت جاي لو تشترك معها في هذا النحيب. لكنها بدلاً من ذلك قالت بسرعة:

ـ لا تبكي. سأخلصها لك. لا أظنها ابتعدت كثيراً بين اللوحين.

علمت أن لا خيار أمامها سوى تخليص الدمية، لأن هولي لن تنام تلك الليلة ما لم تكن دميتها معها، أما كيف تقوم بذلك، فهذا شيء آخر.

سألها تيم متحفزاً للانطلاق ركضاً:

ـ هل أذهب وأبحث عن خالي لايل؟

نظرت إليه جاي بحدة:

ـ لا.. إنه مشغول بالحلب.. سأسند أحد هذه السلالم إلى الجدار وأصعد عليه وأحضر الدمية بنفسي.

سبق أن رأت صفاً من السلالم تركها العمال مسندة إلى جدار المنزل،

وهكذا أحضرت واحداً منها.. أمسكته بكل قوتها ترفعه متأوهة. ليس أمامها سوى استدعاء لايل ليساعدهم، ولكن كرامتها أبت عليها التماس العون منه، وهكذا استجمعت كل قوتها، وناضلت لكي تسند السلّم إلى الجدار ثم نظرت فوقها:

- أتراني وضعته حيث اختفت الدمية؟

قال تيم الذي بدا عليه السرور لهذه الملهاة الجديدة.

- عليك أن تزيحيه قليلاً إلى هذه الناحية، سأصعد لأجلك..

سارعت تحذره:

- لا، لن تفعل شيئاً كهذا، فلا أريد أن يكون عليّ أن أخلصك أنت أيضاً مثل دمية هولي.

وضعت قدمها على أول درجة، وشعرت بالسرور لأنها لا تخاف من المرتفعات. فعملها يتطلب منها دوماً صعود السلالم التي ينصبها الآخرون لها، ثم يقفون في أسفله حتى تعود إلى الأرض سالمة، أما الآن، فعليها أن تصعد دون هذا الأمان، وفي حذاء غير مناسب، فحذاؤها عالي الكعب ومصنوع من الجلد المصقول كالزجاج، وهو يهدد بالانزلاق بشكل مريك.

«أظن...» وترددت. لن يستغرق منها الركض إلى غرفتها واستبدال حذائها أكثر من لحظة، لكنها لمحت وجه هولي الحزين يراقبها، فعلمت أنها سرعان ما تبدأ بالصراخ، كما علمت أن لا شيء يسكتها سوى عودة دميتها إليها، لكن الضجة ستنبه لايل و... وأخذت جاي تصر بأسنانها، ثم عادت تتسلق السلم.

ناداها تيم باهتمام: «هل تستطيعين رؤيتها؟»

- نعم.. إنها على اللوح البلاستيك.

كانت ترجو أن يُطمئن جوابها هذا هولي أكثر مما طمأنها هي نفسها، فاللوح البلاستيك ينحني فوق الفجوة التي في سطح قاعة الطعام، وهذا الانحناء البسيط فيه قذف بالدمية إلى أبعد مما توقعت جاي.. أخذت تنظر إلى المسافة عابسة، ففكرت إن مالت ومدت يدها بين اللوحين لأمكنها

الإمساك بالدمية. إما هذا وإما أن تدفع بها إلى الأمام فتجعلها تقع حيث يوجد شق كبير فتقع منه إلى قاعة الطعام في الأسفل.

تمنت جاي، ليس لأول مرة، لو أن هولي تنصرف عن عنادها بشأن دميتها، لكنها عادت فشعرت بالخجل من نفسها لانعدام صبرها.

لم يبق سوى درجتين أعلى السلم. أدخلت رأسها وكتفيها بين اللوحين الحديدي والبلاستيكي. اكتشفت وقلبها يهبط أنه لا يوجد شيء يمكنها التمسك به. لقد أصبحت قمة السلم الآن تحتها فلم يبق إلا جدار المنزل الذي كان مغطى باللوح البلاستيكي. الدمية للأسف تبعد عنها أكثر من طول ذراع.

فكرت في أنها لن تستطيع الوصول إليها إذا لم تتقدم إلى الأمام إلى ما بعد وسطها.

لم تكن واثقة من مبلغ قدرة اللوح البلاستيكي على الاحتمال، فهذا اللوح استعمل بكثرة وفيه شق طويل. ولهذا لم تشعر بالميل إلى تجربة وزنها عليه رغم نحافتها..

تعالى صراخ تيم: «هولي، انزلي. ستستاء منك جاي يا هولي».

انتبهت إلى أن شيئاً على غير ما يرام يحدث تحت على الأرض.

- لا تصعدي أكثر يا هولي، جاي!

لم يكن تيم بالصبي الذي يخاف بسرعة، لهذا جعلها الذعر السافر في صوته تخرج من المكان الضيق الذي كانت تحشر نفسها فيه وبسرعة اصطدم رأسها بحافة اللوح الحديدي. وكادت تفقد توازنها فوق السلم وهي تلتفت لتنظر إلى أسفل.

- هولي، عودي حالاً.

كان وجهها بالغ الشحوب، فمن شدة اهتمامها بالوصول إلى الدمية لم تشعر بهولي تصعد السلم تحتها. كان وجه الطفلة الشاحب كوجهها مرفوعاً إليها من منتصف السلم حيث تقف.

- عودي... يا لك من فتاة طيبة!

تعرف أن لا فائدة من التعنيف، فالطفلة مذعورة مثلها تماماً.

قالت هولي باكية: «لا أستطيع النزول».

توقف قلب جاي عن الخفقان.

- اصعدي وقفي معي إذن.

حاولت أن تجعل صوتها طبيعياً بينما كان ذهنها يفكر بسرعة.

- لا أستطيع، أنا خائفة.

وانفجرت هولي بالبكاء، فتحرك تيم نحو السلم قائلاً:

- سأصعد وأنزلها.

لكن جاي صرخت فيه بحدة:

- لا، إياك. إبق حيث أنت. إذا حاولت إرغامها على النزول سقطتما معاً.

لم تعلم جاي ما إذا كانت لهجة السيطرة في صوتها أم المنطق هو ما دفع تيم إلى إطاعتها فتنفست الصعداء ثم قالت تخاطب هولي:

- لا تنظري إلى أسفل يا هولي! أنت آمنة ما دمت لا تتحركين من مكانك.

انزلقت قدم جاي وهي تسرع في النزول إلى الطفلة. تمالكت توازنها، وأرغمت نفسها على التمهل في النزول.

- قد أستطيع النزول من فوقك.

لو كانت ترتدي ملابس العمل من بنطلون وحذاء مطاطي مناسب لأمكنها هذا. أما وهي مرتدية تنورتها الضيقة وحذاءها الجلدي الصلب المصقول الكعبين، فقد تجلب محاولتها الكارثة. كانت هولي طويلة بالنسبة إلى عمرها، ذراعاها ممتدتان تتمسكان بالدرجة التي فوقها، لذا أصبح من المستحيل على جاي تخطيها بثيابها هذه، كما أنها لم تجرؤ على تخطي الطفلة والوقوف تحتها. مرة أخرى، لم يسمح لها حذاؤها الصلب بهذا، وإن اهتز السلم في أثناء هذه المحاولات، قد تصاب هولي بالذعر فتفلت قبضتها. وهكذا لم يبق أمامها سوى سبيل واحد للعمل.

- لايل! لايل!

- خالي لايل!

رفعت جاي صوتها وأخذت تصرخ مع تيم منادية.

- ما هذا الـ...؟!

واندفع لايل يركض مستديراً حول زاوية المبنى، وسرعان ما استوعبت عيناه المشهد الذي أمامه.

- ابقي حيث أنت يا هولي... سأصعد إليك وأحملك.

حسدته جاي على هدوئه، بينما شعرت هي بالتوتر وهو يتقدم عدة خطوات نحو السلم.

قال بهدوء: «اصعدي يا جاي إلى قمة السلم إذا أمكن، فمن الأفضل ألا نقف نحن الثلاثة في وسطه في نفس الوقت».

كانت هولي أبعد من أن تطالها ذراعاه إلا إذا صعد السلم هو أيضاً. كان خشب السلم قوي متين، ولكن ماذا لو انزلق تحت ثقل ثلاثة أشخاص؟

شعرت ببرد قارس لم تشعر به قط وهي على قمة السلم وكانت الريح تتخلل ثوبها الصوفي الناعم إلى جسدها المبلل بعرق الخوف.. بدأت الصعود وأعضاؤها ترتجف وكان لايل ينتظر أن تصل حتى يبدأ بالصعود هو أيضاً.. حينما وضع قدمه على أول درجة في السلم أخذ يتحدث إلى الطفلة ليخفف عنها.

أرادت جاي أن تغمض عينيها فماذا لو استدارت هولي إليه قبل أن يصبح على مقربة منها.. ولم تجرؤ على النظر. ثم سمعت لايل يقول:

- ها قد وضعت ذراعي حولك الآن، وبهذا لن تسقطي.

تخلخلت ركبتا جاي ارتياحاً، وهذا ما جعلها عرضةً لخطر التعرض للسقوط هي أيضاً.

- انزلي يديك خارج السلم، ثم احني ركبتك وتحسسي بقدمك الدرجة السفلى التالية. هذه هي الطريقة! هكذا يفعل العمال.

كان يشجعها، آخذاً إياها بالحيلة والصبر دون إظهار أي إشارة من

الاستعجال أو فروغ الصبر. وظل يلاطفها حتى وصلت الطفلة الخائفة إلى الأرض، ولكن بدا وكأن ذلك استغرق دهراً وكانت أعصاب جاي على وشك الانفجار عندما قال أخيراً برقة بالغة:

ـ أنت آمنة الآن... اركضي إلى الداخل مع تيم، واستعدّا للعشاء.

ـ ما زالت دميتي على السطح.

أشارت بإصبعها الصغير فرفع لايل وجهه إلى حيث جاي واقفة.

ـ سأعيدها بنفسي.. أطلبي من مارتا أن تجهز خرقة بالصابون لأجل دميتك عندما أحضرها إلى البيت، فلا ريب أن ثوبها الأصفر الجميل ملوث بالغبار من السطح.

نظرت جاي إلى هولي غير مصدقة لأنها تركض مسرورة مع أخيها فلو حاولت هي الوصول إلى هذه النتيجة لارتفع صوتها بالبكاء والاحتجاج.. عندئذ تملكها شعور مفاجئ لا يمكن وصفه إلا بالغيرة، سببه أن لايل نجح في ما كانت ستفشل هي فيه.

أزاحت جاي هذه المشاعر جانباً، وحدثت نفسها بأنها عندما تصل إلى الأرض، فسيكون لديها ما يكفي من الوقت للاستغراق في هذه المشاعر، فقد أمضت على السلم حتى الآن وقتاً كافياً، وها هو جسمها بأجمعه مخدّر من البرد.. نظرت إلى لايل أسفل فإذا ببرد من نوع آخر يتملكها فقد رأت ما بدا على ملامحه من تعبير وهو ينظر إليها.

كان متوتراً غاضباً، وإذا كان أحجم عن الصراخ على هولي، فمن الواضح أنه لن يتصرف معها بهذا الشكل. تكلم، وبدا البرد القارس بالنسبة إلى صوته رقيقاً دافئاً...

ـ والآن، هلا نزلت إلى الأرض بنفسك، وشرحت لي ما الذي جعلك تتسلقين السلالم في اللحظة التي أدرت فيها ظهري، مجازفة بحياتك، دون ذكر هذين الطفلين.

***

٧ ـ تدفع الثمن

قال ذلك وكأنه يراها أطلقت العنان لعبثها حالما غاب هو عن النظر، فشعرت بالألم لهذا الظلم الصارخ في موقف لايل منها.. كأنه أراد منها أن تشعر بأنها ليست أكبر سناً من تيم وهولي.

قالت مدافعة عن موقفها:

ـ لقد انطلقت دمية هولي ووقعت على السطح.

قال لها بجفاء: «هكذا من تلقاء ذاتها..».

قالت غاضبة: «نعم، من تلقاء ذاتها.. كانت هولي تدعي أنها طائرة ورقية، أما المشكلة فهي أن هولي عندما أخذت تدور حول نفسها، فقدت توازنها، فانفلتت دميتها من يدها إلى أعلى حيث استقرت هنا على اللوح البلاستيكي».

كان لجدال جاي مع لايل من هذا العلو تأثير بالغ فيها ولكنها وجدتها تجربة فريدة من نوعها. فهي، على الأقل، قادرة على إلقاء الكلمات في وجهه بدل أن ترفع وجهها لتنظر إليه.. تلذذت بهذه التجربة ورأتها سارة للغاية، كما أنها منحتها دفعة من الشجاعة.

ـ وهذا ما جعلني (أتسلق السلالم) كما تقول لكي أحاول إعادة دمية هولي إليها بدلاً من المجازفة بجعلها تصرخ طوال الليل.

قال بخشونة: لم يكن هناك ضرورة للقيام بكلا الأمرين إذ كان بإمكانك أن تناديني.

ـ كنت مشغولاً بحلب الأبقار. هل نسيت ما قلته من أن (على كل شيء

أن ينتظر إلى ما بعد انتهاء الحلب)؟

عندما قالت ذلك مقلّدة كلماته بالذات رأت ملامحه تتوتر. ولكن، من مكانها العالي، لم تهتم لذلك.

أردفت: «هذا إلى أنني لم أكن بحاجة إليك».

ـ آه!

كان ذلك صحيحاً، وناح قلبها وأظلمت عيناها، وهذا ما جعلها تتمسك بجانبي السلم خوف السقوط.

تابعت قائلة: «اعتدت تسلق السلالم يومياً أثناء عملي».

سألها غير مصدق: «بملابس المدينة؟»

ـ الملابس لا تهم. ولهذا حاولت تخليص الدمية أثناء وجودي هنا.

وكانت تكذب في ذلك... لو كانت هذه المهمة داخلة في نطاق عملها لما فكرت في القيام بهذه الخطوة وهي مرتدية هذه الملابس. لكن شخصيتها المستقلة تألمت بسبب استبداد لايل في تصرفاته. ثم استدارت وصعدت إلى قمة السلم.

ـ جاي.

ردت عليه صارخة بغضب:

ـ لا تصرخ بي، فلست مجندة حديثاً في الجيش.

ودون نظرة أخرى إليه، دست نفسها بين اللوحين البلاستيكي والحديدي. ولكنها شعرت، وهي تنحني، بأن جسمها متصلب ولم تكن قد أدركت مبلغ ما كان عليه من الخدر والبرد، لذا ترددت لحظة قصيرة.

ـ جاي، انزلي. قلت لك انزلي حالاً.

فردت عليه غاضبة:

ـ وأنا أقول، لن أفعل.

كانت الدمية قريبة منها، على بعد قيراطين من أصابعها الممتدة، وكانت ملقاة بجانب شرخ طويل في اللوح البلاستيكي. إذا أمكنها أن تمط نفسها إنشاً أو اثنين فقط، لأمكنها أن تدفعها فتقع في قاعة الطعام أسفل.

وقفت على أطراف أصابعها تمط جسمها إلى الداخل.

لقد نسيت حذاءها الجلدي الصلب، ولم تشعر بأول انزلاق خفيف حدث، إذ كانت قدماها متجلدتين من البرد إلى حد فقدت معه الإحساس تقريباً... لكنها شعرت بالانزلاق الثاني وفي لحظة خاطفة توقف قلبها عن الخفقان لأن قدمها انزلقت عن قمة السلم. وبما أن قدمها الأخرى لم تكن مستعدة لاحتمال الثقل المضاعف المفاجئ، فقد تبعتها تاركة جاي عاجزة متدلية من لا شيء سوى جدار المنزل تحت وركيها... زحفت إلى الأمام بصعوبة، وهي تشعر بحذائها ينزلق من قدميها المتجلدتين.

تساءلت لحظة عما إذا كانت إحدى فردتي الحذاء ستقع على لايل، ثم لم يعد لديها وقت للتساؤل عن شيء سوى أين ستصبح هي نفسها:

ـ لايل، النجدة.

أطلقت جاي هذه الصرخة وهي تندفع إلى الأمام، باسطة يديها وذراعيها على اللوح البلاستيكي، ولم يبق في الناحية الأخرى من الجدار سوى ساقيها تمنعانها من السقوط على رأسها خلف دمية هولي.

تحت الضغط المفاجئ ليدَيْ جاي، ازداد اللوح البلاستيكي انحداراً، فانزلقت الدمية بسرعة نحو الشق الذي أصبح الآن مخيف المنظر في اللوح البلاستيكي، والذي بدا لناظري جاي المذعورتين وكأنه يتقدم نحوها. اندفعت موجة هواء دافئ صاعدة من الفجوة الآخذة بالاتساع. أغمضت عينيها بسبب الرعب المتصاعد الذي تملكها، ثم فتحتهما مرة أخرى فوجدت أن التمزق كان فعلاً يسرع نحوها. فالشق لا يحتاج إلا إلى ضغط مفاجئ لكي يتسع.. أخذت تنظر إلى الدمية وهي تنحدر برشاقة في الشق ثم تختفي في الفجوة. ثم شعرت بالغثيان... ففي قاعة الطعام في الأسفل، بعض قطع الأثاث الصغيرة كما تمكنت من أن ترى ما يشبه غابة حقيقية من أثاث خشبي قوائمه متجهة إلى أعلى.. في تلك اللحظة ارتطمت الدمية بإحداها، ثم استقرت على الأرض.

شعرت جاي بجفاف مفاجئ في حلقها، فإذا وقعت هي، فلن ترتطم

كهذه الدمية بقائمة الكرسي ثم ترتد مثلها لتقع على الأرض بل ستخترقها القائمة كالخازوق.

هتفت بصوت أبح: «لايل».

لم تنتبه إلى أن صوتها خرج من حنجرتها كالهمس. كان مستحيلاً عليها التراجع إلى الخلف، فليس هناك ما يمكنها ضغط يديها عليه لكي تمنح نفسها قوة دافعة.

- لايل.

تملكها الهلع فرفعت يديها تحاول التمسك بشيء ما، ولكنها لم تشعر بسوى الفراغ، ثم بدأت تنحدر إلى الأمام، عاجزة عن القيام بشيء...

- اثبتي مكانك.. لقد وصلت إليك.

قبضت على أحد كاحليها أصابع فولاذية، فأوقفت انحدارها المتسارع، ثم قبضت أصابع أخرى على ذيل سترتها وبعد ذلك سمعت صوت احتكاك قمة السلم بالجدار... ثم أرخت الأصابع قبضتها على كاحلها وظهرت بجانبها، منحدرة على قمة الجدار. انزلقت تحتها تجرها بحذر إلى الخلف، بعيداً عن الغابة المخيفة التي تنتظرها والمؤلفة من قوائم الأثاث المقلوب، بعيداً عن اللوح المنشق جاراً إياها بعيداً عن اللوح الحديدي المتعرج إلى الجوّ البارد البهيج في الخارج. تنشقت جاي الهواء البارد بأنفاس مرتجفة.

- دعي جسمك متصلباً، فسأنزلك إلى أسفل.

صرخت برعب:

- لا يا لايل، إياك! أستطيع النزول بنفسي. يجب أن لا تفعل...

ولكنه فعل بمهارة وسهولة، فقد أدارها لتواجهه ممسكاً بها خلف ركبتيها، ثم ألقاها على كتفه كما يفعل رجل الإطفاء.

- لايل، دعني في وضع مستقيم.

أطلقت جاي صرخة رعب حادة وهي ترى عالمها ينقلب فجأة رأساً على عقب.. نظرت إلى الأرض التي بدت لها بعيدة مئة قدم على الأقل وأخذت تتشبث بملابسه وذراعيه مذعورة. هتفت بغضب ناتج عن رعبها البالغ:

«دعني أذهب».

أخذت تضرب كتفيه بقبضتيها الصغيرتين.

«لا تتحركي!» ورفع يداً قوية مسدداً إليها صفعة حادة، فشهقت غير مصدقة.

هذه المعاملة المهينة! عمَّ قلبها كره أسود له.. لقد سمح لهولي بأن تنزل درجات السلم على قدميها، فلماذا يمنعها هي من ذلك؟ احمرت الرؤية أمامها لشدة الغضب.

- لا تقاوميني وإلا أوقعتنا معاً كومة واحدة على الأرض.

شعرت جاي بأنها غير مهتمة بذلك، فأي شيء هو أفضل من الاستسلام لمثل هذا الإذلال بين يدي لايل.

- لا يمكنك النزول على السلم بنفسك، فقد فقدت حذاءك. وهذا يعني أن قدميك وساقيك أكثر تجمداً من البرد.

يجب أن لا يعلم لايل بحالة قدميها وساقيها... يجب أن لا...

بعد ذلك بدهر، أوقفها لايل أخيراً، فتنفست الصعداء... ولكن شعورها بهذه الراحة لم يطل، إذ أمالها إلى الخلف يسندها على السلم ويثبتها عليه ثم يقبض على جانبي السلم حتى لا تستطيع الهرب. سألها بفظاظة:

«أي عقل جعلك تصعدين السلم بحذاء كهذا؟»

وانحنى بحركة سريعة غاضبة يلتقط فردة من حذائها وهزها أمام أنفها.

قالت مدافعة عن نفسها: «ليس في حذائي أي عيب».

- الكعبان مصقولان كالزجاج.. من العجب أن تستطيعي الوقوف بهما على الأرض باتّزان فكيف بالصعود بهما على درجات السلم الضيقة؟

- كيف عرفت شكل حذائي؟

- عرفته عندما التقطت الفردة التي ارتطمت بي.

قالت ضاحكة بسخرية:

- ارتطمت بك فردة الحذاء إذن؟

وتملكها سرور لم تستطع مقاومته. لقد أصابت فردة حذائها الهدف!

رد عليها يقول برقّة:

ـ من حسن حظك أنها مسّت طرف كمي فقط.

تلاشى سرورها الذي أطفأه الغضب الهادئ في نظراته إليها. أما هو فاشتدت قبضتاه على جانبي السلم حتى ابيضت مفاصل أصابعه، وكأن تلك القبضة ستسحق الخشب لدى أول كلمة لا تعجبه.. شحب وجه جاي واتسعت عيناها، مما قد تجعله سخريتها يفعل. لقد فات وقت الندم على ضحكها وقد يكون فات الوقت لتجنب الكوارث الناتجة عن ذلك.

قالت بيأس: «فعلت ذلك لتكف هولي عن الصراخ».

ـ لم أسمع صراخها.

ـ كانت على وشك الصراخ، فهذه عادتها إذا ما فقدت دميتها لأكثر من دقيقة أو دقيقتين.

ـ كان من الأفضل أن تدعي الطفلة تصرخ على أن تجازفي بحياتها وهي تصعد خلفك على السلم.

قالت ساخطة:

ـ وما أدراني أنها ستصعد السلم خلفي؟ لقد وصلت إلى منتصف السلم حتى قبل أن أعلم بصعودها.

ـ كان يجب أن تحتاطي لذلك.

ـ كيف أحتاط؟ صعدت السلالم مئات المرات، ولم يكن عليّ، قط، أن أحتاط لعدم صعود الأولاد خلفي.

ـ ألم تضعي قط شيئاً عند أسفل السلم أثناء ارتقائك له؟

وجّه إليها هذه الأسئلة بصوت حاد، فاحمر وجهها وردت عليه بانفعال:

ـ كان العمال ينصبون السلم لأجلي قبل كل شيء. ما هي الاحتياطات الأخرى المفروض أن أتخذها؟

ـ الأشياء المنطقية، خصوصاً أثناء عملك في «ميلبول هال». فأثناء

وجودك هنا، لن تجدي عمالاً يحرسونك عند أسفل سلّمك. وما دام أصبح لدى تيم وهولي ثياب جديدة فهم سيلعبون خارج المنزل ولا أريد تعريضهم لأي مجازفة بسبب إهمالك.

قال لها ذلك بوقاحة ونسي أنها جازفت بنفسها.

ـ سأزودك بقطعة خشب تربطينها إلى أسفل سلّمك وسيكون الخشب بعرض السلم بحيث تصل إلى الدرجة الثالثة، وبذلك لن يستطيع أي من الولدين صعود السلم. أما ساقاك فطويلتان لذا لن تجدي صعوبة لتخطي الخشبة.

ردت عليه جاي بخشونة:

ـ إذا ربطنا قطعة خشب بذلك الحجم إلى أحد هذه السلالم فلن يعود بالإمكان رفعه فوزنه الآن يبدو لي طناً.

ـ لن تستعملي هذه السلالم أثناء عملك بل سيكون لديك سلم من الألمنيوم. وسأقطع قطعة من الخشب المعاكس لكي أربطه إليه، وهي لن تضيف كثيراً إلى وزنه.

ـ لم يحضر لي العمال طقم سلالمي من تشستر معهم. لقد جاؤوا مباشرة إلى هنا في عمل آخر دون أن يعلموا أنني أريد معداتي الخاصة.

ـ هذا ما أخبروني به، وهذا هو السبب في أنني اشتريت طقماً من السلالم الألمنيوم حين كنت في المدينة عصر هذا اليوم.

كان ذلك وكأنه يملي عليها أي نوع من المعدات عليها أن تستعمل أثناء وجودها في منزله. وكان هذا استبداداً واضحاً، فبدا الاستياء في عيني جاي لذلك التدخل.

قالت بتهكم بالغ: «فكرت في كل شيء. أليس كذلك؟»

رد عليها بلهجة ذات معنى:

ـ على شخص ما أن يقوم بذلك.

كان يعني أنه كان عليها القيام بهذا، ولم تفعل. وقبل أن تلتقط جاي أنفاسها لتجيب، أضاف يقول:

- سأربط الخشب المعاكس إلى السلالم بنفسي قبل أن تبدئي باستعمالها غداً، إذ سبق أن عرّضت منزلي للخطر بسببك. والآن أضعت كل وقت الحلب تقريباً في تخليصك.

قالت له غاضبة:

- ما دمت أخطئ دوماً، فلماذا تزعج نفسك؟ أما بالنسبة لسلالك الألمنيوم التي اشتريتها لأجلي، فاحسب ثمنها من القائمة النهائية.

قال بفظاظة: «لن يكون هذا ضرورياً لأن بإمكانك دفع ثمنها الآن».

وعلى حين غرة، ترك جانبي السلم، فأصبحت حرة! تحولت بسرعة تحاول الابتعاد من تحت ذراع لايل، لكنه كان أسرع منها، فقبض على أعلى ذراعيها يجذبها إليه بخشونة... ودفعت رأسها إلى الخلف وراحت كلمات الاحتجاج تتدفق إلى لسانها غير أنه أطبق عليه يعانقها بقوة فمنعها بذلك من الكلام.

تمهّل في جعلها تدفع الثمن الذي يريده بالضبط؛ ثمن إنقاذه لها من النار، ومن السطح، وثمن السلالم الجديدة. كان يطلب الثمن كاملاً، لا عجلة.. لا رحمة.. أما هي فازدادت برودا وتجمّد جسدها غضباً، وراحت تتوسل إليه بعينيها البنفسجيتين أن يتوقف. ثم أخذت تشعر بالوهن والاستسلام، وتفتحت أحاسيسها بين ذراعيه. وما إن شعر باستسلامها حتى انطفأ غضبه، وبحركة سريعة، دفعها عنه بعيداً.

ركضت لتبتعد عنه ثم أخذت تشهق وهي تقول: «أكرهك.. أكرهك».

ولكن لايل لم يكن يستمع إليها، إذ تحوّل عنها نحو السلم يرفعه وهو يأمرها من فوق كتفه بعدم اكتراث:

- انتعلي حذاءك واذهبي إلى قاعة الطعام وأحضري دمية هولي. أما أنا فسأضع هذا السلم على الجدار مع السلالم الأخرى.

انتعلت حذاءها واتجهت نحو زاوية المبنى حيث أخذت تتلمس الطريق الذي لم تستطع رؤيته بسبب الدموع في عينيها، وكادت تتعثر في سرعتها قبل

أن ينتهي لايل من السلم ويتبعها. نظرت إلى الخلف من فوق كتفها، فإذا هو يرفع السلم عن الجدار، ثم يخفضه إلى وضعه الأفقي السابق لكي يضعه مع سواه، وكان يحركه بيديه بسهولة وكأنه ليس أكثر من لعبة.. تابعت جاي طريقها مسرعة، وما لبثت أن تنهدت شاعرة بالراحة، وابتعدت عن شعورها بالعار من إذلاله بعناقه ذاك.. آه! لن تصفح عنه أبداً لمعانقته إياها..

وقفت في غرفة الطعام وقد عادت إليها الذكريات، إذ هب الهواء في وجهها يحييها من الشق في اللوح البلاستيكي.. رفعت بصرها لترى الشقّ فوق رأسها مباشرة، لكنها حولت بصرها بسرعة شاعرة بالغثيان. لو لم يمسك بها لايل في الوقت المناسب، لكانت هذه البقعة هي المكان الذي وقعت فيه... ابتلعت ريقها وأرغمت نفسها على تركيز أفكارها على الهواء الدافئ، فنظرت حولها تريد أن تعرف المصدر.

أهي مدفأة تدور بالغاز؟ سارت نحوها ببطء. كانت جديدة... وإذا بقدمها تلمس شيئاً طرياً وعندما انحنت بشكل آلي تلتقط دمية هولي، فوجئت لأن الدمية غير ملطخة.. وجدت الأرض تحت قدميها قد نظفت حديثاً وكذلك الأثاث. إذن الغرفة نظفت عندما كانت مع لايل في الخارج! أو ربما قبل أن يذهبا؟ كان عملها في ذلك الصباح محصوراً في المكتب، ولم تكن دخلت قاعة الطعام منذ زيارة مندوب شركة التأمين أول أمس.

سارت نحو النافذة تنظر منها، ثم خطرت لها فكرة.

قطع الزجاج الملون! القطع التي لا يمكن تعويضها التي سقطت من النافذة إلى الأرض، لم يعد لها وجود.. حدقت إلى الأرض المكنوسة حديثاً بعدم تصديق، ثم سمعت صوت لايل يتحدث خلفها قائلاً باستحسان: «الحرارة مرتفعة بشكل جيد هنا».

كانت حرارة جاي تنافس حرارة المدفأة وهي تفكر في مصير تلك القطع الثمينة من الزجاج الملوّن.

التفتت إلى لايل وكل أثر للخوف قد تبدد من نفسها، وصاحت في

وجهه:

ـ قطع الزجاج الملوّن! هناك من كنس الغرفة بما فيها من قطع الزجاج. كيف سمحت لذلك بأن يحدث؟ ألم تسمعني عندما قلت لمندوب الشركة إنني سأنقذ كل قطعة، مهما صغرت، من زجاج النافذة؟ إنه الزجاج الأساسي، ولا يمكن تعويضه على الإطلاق!

أخرسها، لحظةً، ما شعرت به من الغضب وعدم التصديق.

عادت تسأله: «متى يفرغون صندوق قمامتكم؟»

أرادت أن تعلم بسرعة، فهذا آخر بارقة أمل لها... فإن لم يكن صندوق القمامة قد أفرغ بعد، فسيبحث لايل، نعم لايل وليس هي، بين القاذورات.

صممت على ذلك وقلبها ممتلئ حقداً.

أجاب لايل دون اهتمام: «هذا الصباح».

ـ إذن فات الوقت.

استدارت تفرغ حنقها على الشخص الذي جعلته مسؤولاً حتى وإن لم يكن المذنب الحقيقي.

عادت تقول مهددة بغضب بالغ:

ـ لا يهمني أن أفسخ العقد الذي بيننا، فما الفائدة من إصلاح زجاج ملون لا يثمّن لأجل مالك يبلغ من عدم اهتمامه به بحيث يسمح لشخص ما بأن يلقي في القمامة موادً لا يمكن لأي مهارة في عصرنا تعويضها؟ فكما يقول المثل (ما يأتي بسهولة، يذهب بسهولة).

كانت تتهمه بشكل جارح، ولم تكن منصفة في ذلك، فسبق أن أخبرتها بيث أن لايل يقدر ميراثه إلى أقصى حد. ولكن تعاستها فاقت اهتمامها بهذا الكلام.

انفجرت فيه ثائرة: «ثم تبلغ بك الوقاحة أن تتهمني بعدم التفكير، ومع ذلك تسمح بكل هذا ثم لا تهتم بالأمر، على الأقل».

ـ كان من اهتمامي بالأمر بحيث أنني كنست القاعة بنفسي.

نظرت إليه مذهولة، كيف يعترف بذلك بهذا الهدوء؟

ـ كنست القاعة بنفسك؟ أنت ألقيت بقطع الزجاج؟ سمعتني وأنا أقول لمندوب الشركة... كنت هناك عندما كنت أقول...

ـ وهذا هو السبب في أنني كنست القاعة بنفسي، ومشطت كل إنشٍ من الأرض بمشط ناعم، لكي أتأكد من الحصول على كل شظية من الزجاج مهما كانت صغيرة الحجم.

ثم مد يده يرفع غطاء أحد صناديق الإنقاذ الذي كان تحت المائدة المستطيلة. كانت جاي قد رأت الصندوق هناك، لكنها ظنت أن أحد العمال قد تركه لها، وهكذا تجاهلت وجوده في الغرفة.

قال لايل وهو يصر على أسنانه:

ـ ها هو ذا زجاجك الملوّن، وهو كل ما استطعت العثور عليه.

ـ إنه... أنا...

وسكتت. هناك، داخل صندوق الإنقاذ، وُضعت بكل عناية، على الحشو الأبيض، قطع الزجاج الملونة من كل الأحجام والأشكال.

قالت دون تفكير ناطقة بأول ما تبادر إلى ذهنها:

ـ إنها أكثر مما كنت أظن.

لم تستطع حمل نفسها على النطق بكلمات تعلم أنها لا تستطيع قولها مثل (آسفة) أو (شكراً).

ـ هذا لأنني نزعت القطع المتفككة التي كانت عالقة في النافذة. لقد قال العمال إنهم لن يستطيعوا إحضار معداتك قبل أربع وعشرين ساعة، فتكهنت أن ذلك يتضمن قفازات سميكة لمهمة كهذه، فمن المؤكد أنك تحتاجين إلى قفازات سميكة لمثل هذا العمل. إن بعض القطع ذات حد كحد الموس.

أعاد الخوف صوت جاي، فسألته: «هل جرحت نفسك؟»

ودون تفكير، أمسكت بيدي لايل مذعورة تبحث فيهما عن جروح، وصرخت بقلق:

ـ ما كان لك أن تجازف. إن أجزاء الزجاج ملصقة ببعضها البعض

بواسطة الرصاص، وقد يكون سماً.

لو جرح لايل يده، وأصيب الجرح بتلوث مميت، لاعتبرت أنها المسؤولة عن ذلك. . فجأة شعرت بالندم يخنقها، فقد قام لايل بهذا ليساعدها، تماماً كشرائه السلالم، كما كانت متأكدة من أن سبب شرائه للمدفأة هو نفس الشيء، لأنه لاحظ مبلغ معاناتها من البرد الذي لم تكن متعودة عليه. وبدلاً من أن تشكره، أخذت تتهمه غاضبة.

ـ لايل. . أنا آسفة.

قالت هذه الكلمة الآن، ولكنها لم تهتم. . لقد جرفت لهفتها للمصالحة كبرياءها. فتشبثت بيديه وعيناها تلتمسان منه الصفح.

سألها وهو يسحب أصابعه من يديها وينحني ليغلق غطاء صندوق الإنقاذ:

ـ لماذا؟ لم أجرح يدي لأنني استعملت خرقة جمعت بها الزجاج، وأقترح عليك القيام بالشيء ذاته حتى تصل معداتك من تشستر. أثناء ذلك ستكون الغرف جفت تماماً، إذ اشتريت أقوى أجهزة التدفئة في المدينة، وبهذا لن يتوقف العمل.

«لم يشترها لأجلي إذن» سقطت يداها إلى جانبيها، وتملكها شعور بالوحشة حين أضاف لايل يقول:

ـ فلنذهب إلى هولي لنعيد إليها دميتها، قبل أن تبدأ بمضايقة مارتا.

ألقت مديرة المنزل نظرة ناقدة على الدمية النظيفة المظهر:

ـ حسناً. . لا تبدو بحاجة إلى خرقة وصابون، لكنني لا أستطيع أن أقول نفس الشيء عن الآنسة جاي. رباه! أنظري إلى طقمك الجميل. لقد تلوث كماه بشكل سيء.

نظرت جاي إلى كميها وهي تقول باستسلام:

ـ يمكنني أن أنفضه، فقماشه مريح. . .

لكنها اعترفت لنفسها بأن نفس الشيء لا يمكن أن يقال عن صاحبة الطقم. التوتر، البرد، العواطف المتأرجحة. . . كل ذلك في نهار مشحون.

شعرت بالإرهاق والضيق، كقطعة مطاط بقيت مشدودة زمناً طويلاً ثم انقطعت فجأة.

ـ سأصعد إلى غرفتي للاغتسال قبل العشاء.

يجب أن تتمالك اتزانها قبل أن تواجه لايل مرة أخرى.

قالت مارتا: «سأضع العشاء في غرفة الإفطار يا آنسة جاي، كما قلت هذا الصباح. وسيبقى هذا الإجراء حتى تعود قاعة الطعام للاستخدام».

اغتسلت جاي وتزينت وارتدت ثوباً يلائم لون عينيها، ثم حاولت عبثاً أن تبطئ من سرعة الدقائق التي تقربها من لقاء لايل على مائدة العشاء، فصحيح أن الطفلين سيكونان معهما ولكن ذلك لن يدوم طويلاً، إذ سرعان ما يحين وقت نوم هولي وتيم، وبعد ذلك. . .

صممت على مرافقة الطفلين إلى فراشهما بنفسها، ثم البقاء معهما لأنها لا تستطيع احتمال التفكير في البقاء بصحبة لايل بقية السهرة.

ومن باب غرفة الإفطار المفتوح، تعالت الأصوات.

ـ عند عودتنا كانوا قد أبعدوا الشجرة الساقطة، ولكن بقيت هناك شجرة ساقطة أخرى في الحقل.

كان لايل والولدان هناك، وكانت مارتا تضعهما في مكانيهما، بينما خالهما، كما يبدو، يحدث مديرة منزله عن أحداث الصباح.

ـ هل كانت من أشجارنا؟

ـ لا بل هي شجرة قديمة ساقطة من الطريق في أملاك ناثان ويلسون.

ـ آه، هذا يذكرني بشيء. لقد نويت أن أعطي السيدة ويلسون الشابة وصفة لصنع جيلي الكرز، لكنني الآن لن أتمكن من الذهاب إلى اجتماع «الجمعية النسائية» هذا الأسبوع.

قال لها لايل:

ـ سأسلم السيدة ويلسون وصفتك. إذا شئت. لقد وعدت السيد ويلسون بزيارته في هذين اليومين، فنحن بحاجة إلى تنظيف الجزء الممتد من النهر في أرضي وأرضه. إنه مملوء بالرواسب الطينية بشكل سيء.

أمسك بكرسي جاي لكي تجلس إلى المائدة، فجلست بصمت. وعندما رأت أنها أصبحت في مواجهته، أسرعت بشغل نفسها بتناول الحساء، وكم كانت متضايقة من الصمت المتوتر بينها وبين لايل.

لم يكن الطفلان بحاجة إلى المساعدة في تناول حسائهما، ولهذا شعرت جاي بأن كل عالمها انحصر في صحن الحساء الذي أمامها. ولم تجرؤ على المغامرة برفع عينيها خشية أن تتقابلا مع عيني لايل.

أراحها أخيراً حضور مارتا بالطعام، فارتدت جاي لتساعد هولي في تقطيع اللحم في صحنها.

عندما عادت مارتا بالقهوة، نهضت جاي واقفة وهي تقول:

ـ سأساعدك في إخلاء المائدة.

ـ لا ضرورة لذلك، آنسة جاي، فالخادمة الجديدة ستبدأ بالعمل هنا غداً صباحاً، والأطباق المستعملة ستوفر لها عملاً تعمله.. اجلسي أنت واسكبي القهوة.

وأشارت برأسها باسمة إلى حيث كانت الصينية بجانب جاي إلى جانب المدفأة.

خفق قلب جاي وهي ترى الطفلين يستمعان إلى القصة الموعودة إلى الجانب الآخر من المدفأة. لأول مرة تترك هولي دميتها لتزحف وتجلس في حضن خالها، أما تيم فجلس عند قدميه على البساط وهو ينظر حالماً إلى الحطب المشتعل.

شعرت جاي بنفسها وحيدة! إنها الغريبة هنا وهي منفية من هذا الاجتماع العائلي الصغير... تملكتها المرارة، فمدت يدها تتناول دمية هولي المنبوذة مثلها، لعلها تستمد التعزية من أشياء صغيرة لا حياة فيها. ثم أخذت أذناها تصغيان إلى قصص لايل عن الماضي، بينما راحت عيناها تراقبان النار المشتعلة في المدفأة دون أن تراها، هذه النار التي لا تقدم لها أي دفء أو إشراق...

٨ ـ تفضح مشاعرها...

ـ إنه صوت التليفون.

ـ سأجيب نيابة عنك.

ـ أرجوك يا آنسة جاي، فأنا مشغولة بهذه الصينية.

ابتسمت جاي ورفعت السماعة:

ـ هنا منزل ميلبول هال.

قال المتصل:

ـ هنا ناثان ويلسون جار لايل وأنا أريد محادثته من فضلك.

ـ سار إلى الناحية الأخرى من المنزل.. سأذهب وأبحث عنه لأجلك.

ـ لا. لا تفعلي هذا، من الأسرع أن تبلغيه رسالة مني.

ـ كما تشاء.

ـ قرّر لايل الحضور إليّ لنتحدث بشأن تنظيف النهر.

ـ نعم، أعلم ذلك. تحدث عن هذا أثناء العشاء ليلة أمس.

ـ أخبريه بأن لا يأتي.. أخبريه بأن راعي الماشية عندي جاء للتو ليخبرني بمرض إحدى الأبقار. قال إنها تلهث وتعاف الطعام.. البيطري قادم بعد قليل، ولكن لايل سيتفهم الأمر.

ـ سأخبره.

يبدو أن ميلبول هال ليس المنزل الوحيد الذي يعاني من المشاكل.. عادت إلى المطبخ تخبر مارتا.

ـ إنه ناثان ويلسون يريد التحدث إلى لايل. سأذهب لإبلاغه الرسالة

بنفسي، إذا أردت.

كان واضحاً أن مارتا تريد ذلك، فقد كانت بالغة الانشغال، وهكذا أغلقت جاي المطبخ، ثم ذهبت تبحث عن لايل.

- إنه في المخزن يا آنسة جاي، وأنا ذاهب إلى هناك أيضاً.

- هل لك أن تبلغه، يا بوب، هذه الرسالة؟

اغتنمت جاي هذه الفرصة السانحة وأملت على بوب مخابرة تاثان ويلسون.

- سأخبره حالاً يا آنسة. أنا ذاهب الآن للبحث عنه.

ثم أومأ برأسه دون أن يبتسم كعادته، وتركها ومضى مسرعاً، فأخذت جاي تنظر إليه بدهشة. لم يحدث قط من قبل أن رأت بوب يسير بهذه السرعة والاهتمام، كما أنه لم يتعوّد الحديث إليها قط دون أن يبتسم.

فكرت، ساخرة، في أن البقر هنا يوقظ في الرجال عواطف أكثر مما يثيره أحد آخر... ثم هزت كتفيها وهي تذهب لإحضار دفتر تخطيطاتها.

قالت تخاطب مارتا في المطبخ:

- أنا أقوم بعملي في قاعة الطعام، يا مارتا، إذا أرادني أحد.

ثم هربت إلى وحدتها الممتعة مع عملها.

ما زال الدفء ينبعث من مدفأة الغاز... أخذت تمرّ بأصابعها على الأثاث المنظف حديثاً. كان صقيلاً جافاً مع أنه محترق في بعض الأماكن بشكل سيء، وجزء من المائدة كان متفحماً.

أخذت تربت على المائدة مواسية... ثم حولت انتباهها إلى النافذة، فسرّها أن النيران هنا تركت أيضاً بقايا، وهذا ما يساعدها على القيام بتخطيط للنافذة كما كانت، كما يساعدها على ذلك شعار آل غاونت المرسوم على الأوراق المحفوظة في صندوق مستندات الأملاك الذي أحضره لايل إليها لتراه في ليلة أمس الأول.. كان ذلك المساء غريباً غير متوقّع، ابتدأ ببحثها عن عذر، أي عذر، لئلا تبقى وحدها معه بعد أن نام الطفلان، ثم انتهى بأن تمنت لو تستمر هذه الليلة إلى الأبد دون أحد سواهما، هي

ولايل. ذلك أن مارتا أخذت الطفلين للرقاد بنفسها، ثم بقيت هناك معهما بعد ذلك.

- إنها عادتي في نهاية النهار. لقد مضت سنوات عديدة منذ حكيت حكاية قبل النوم للأطفال.

وهكذا لم تستطع جاي أن تحرم المرأة من هذه المسرة، ولكن ذهنها أخذ يذهب هنا وهناك، مفتشاً عن مكان تذهب إليه في الوقت الذي ذهبت فيه مارتا والطفلان... فقلبها لا يحتمل مواجهة أخرى مع لايل، بعد المواجهة الماضية. وأخيراً، كانت مارتا هي التي أنقذتها عندما قالت تخاطب لايل: «طلب مني الراعي أن أخبرك، يا سيد لايل، أن حالة تلك النعجة المسنة لا تعجبه، وهو يتمنى أن تلقي عليها نظرة عندما تقوم بدورتك الأخيرة هذه الليلة».

- سأذهب الآن.

لم ينتظر لايل حتى يذهب في دورته المعتادة خارج المنزل قبل أن يذهب للنوم، بل نهض على الفور وكأنه هو أيضاً كان يبحث عن عذر يخرج به من الغرفة كيلا يبقى معها.. بهذا فكرت ولهذا شعرت بالاختناق، والغريب أن هذا ما كانت ترغب فيه منذ لحظات فقط.

توسلت هولي إليه مادة ذراعيها:

- خذني إلى سريري يا خالي لايل.

- أنت ثقيلة الوزن جداً بعد أن أكلت كل ذلك العشاء.

ومع ذلك حملها على كتفيه وتركوها بمفردها. وعلى عكس ما توقعت، لم تستطع البقاء بمفردها بعد خروج لايل، فالغرفة الصامتة لم تدخل السلام إلى نفسها.. راحت تنظر إلى صورة هنا وتتفحص تمثالاً صغيراً هناك.

عادت إلى كرسيها وهي تشعر بالراحة لأن لايل سيبقى، على الأغلب، مع الماشية لبعض الوقت. جذبتها نار المدفأة فهدأت من تململها ومن جيشان مشاعرها... كانت مجلة لايل ملقاة على كرسيه، ولكنها لم تحاول التقاطها لتنظر فيها. أما مجلتها فكانت في غرفتها، ولكن صعودها لإحضارها الآن يعني

إزعاج مارتا، كما أنها عرضة للقاء لايل الذي ربما يمكث فترة مع الطفلين قبل أن يخرج.

استندت جاي إلى الخلف في كرسيها وأغمضت عينيها، تاركة ذهنها ينجرف مع الدفء المنبعث من المدفأة. ربما غفت قليلاً، فلا بدّ أن الوقت مرّ دون أن تشعر به... لأنها عندما عادت ففتحت عينيها كانت النار توشك أن تخمد ولكنها استطاعت حتى على ضوئها الخافت أن ترى لايل واقفاً على البساط أمام المدفأة، ينظر إليها. بادلته نظراته مدة كافية لتجعلها تتساءل عما إذا كان موجوداً حقاً، أم أنها تحلم.. مدة كافية لتجعلها تشعر بالذعر وهو ينحني ليضرم النار الخامدة بقطعة حطب. عند ذلك أدركت أنها مستيقظة تماماً، وأن فرصة الهرب من الغرفة قد فاتت.. مدة كافية لتشعر ببهجة عنيفة لعودته إليها، فهو لم يحاول أن يهرب من صحبتها.. عندئذٍ استقامت في جلستها، أما هو فقال: «لقد أحضرت معي صندوق الأوراق الرسمية إذ رأيت أن من المفيد أن نراجعها معاً».

لم يكن السبب في عودته الاستمتاع بصحبتها كما ظنت، بل العمل والاطمئنان إلى أنها تعمل معه.

ـ لتأخذ كل جزء من دينك عليّ.

قالت ذلك بمرارة، فرمقها بنظرة جانبية حادة وقرّب كرسيه من كرسيها ووضع الصندوق بينهما وهو يقول:

ـ بعد العشاء هو الوقت الوحيد الذي أستطيع الجلوس فيه للقيام بمثل هذه الأشياء، عالماً أنه لن يقاطعني أحد.

ـ وماذا بالنسبة إلى النعجة. أليست هذه مقاطعة؟

ـ وضعت توأمين من الحملان.. إن حاجة وليديها إليها ستشفيها.

تملك جاي الاكتئاب وهي تفكر في أن حاجتها هي إلى لايل ستدمرها..

نظرت إلى لايل مستفهمة حين أضاف قائلاً:

ـ مدّي أنت يدك أولاً.

ـ أمدّ يدي؟

فقال بفروغ صبر وهو يشير إلى الصندوق:

ـ مدي يدك واستخرجي أول ورقة من الصندوق، فقد فكرت في أننا سنأخذ ورقة بعد أخرى بانتظام ونفحصها، وهكذا نفحص كل ما في الصندوق نحن الاثنين.

لم يبد عليه أقل إشارة إلى التعب والواضح أيضاً أنه لم يتوقع أن تكون جاي متعبة هي أيضاً. عندئذ تبدد نعاسها في موجة السخط التي تملكتها لافتراضه أنها لن تعترض على قضاء سهرتها متفحصة أوراقه، ولكن الفضول تغلب على الثورة في نفسها ذلك أن عينيها وقعتا على ورق مصفّر تحت غطاء الصندوق.. مدت يدها مترددة تفتح الورق النفيس:

ـ إنها ورقة بيع شيء ما، تاريخها ١٥١١م ومكتوبة باسم «ليال غاونت إسكوايز»، تهجئة الاسم تختلف عن اسمك.

ـ التهجئة لا تهم. هل المستند نفسه بحالة جيدة؟

أجابت: «تماماً. بما أن تاريخها يعود إلى العام ١٥١١، فهذا يعني أن ليال غاونت هو أحد أجدادك، أليس كذلك؟»

ـ إنه أول مالك لهذا المنزل، وقد بقي آل غاونت في نفس البيت منذ ذلك الحين.

ـ يا لها من أسرة تكره المغامرة!

قالت ذلك بنزق، فرفع لايل رأسه بعنف وفي عينيه ومضة تحذير. ولكن قبل أن يجيب، أضافت تقول بسرعة:

ـ إنه دورك الآن.

ربما بسبب نار المدفأة الملطف للمشاعر، أو لأن هذه المستندات مكتوبة منذ زمن طويل، كان من المستحيل الجدل حول حسابات مزرعة تعود إلى أربعمئة عام.

ـ هذه هي ورقة التعاقد على صورة «قان دايك».

ـ وهذه ورقة شراء مائدة غرفة الطعام، تصور أن قطعة أثاث بذلك الحجم لم تكلف سوى أربعة شلنات.

مدّا أيديهما إلى جوف الصندوق بشكل عشوائي، متبادلين اكتشافاتهما هاتفين وكأنهما طفلان يكتشفان صندوقاً يحتوي على كنز، وفي غمرة اهتمامهما بالتفتيش نسيا خصامهما مؤقتاً.. عندما ركعت جاي على ركبتيها بجانب الصندوق، انتفخت تنورتها على البساط وكأنها مروحة متعددة الألوان، وجهها متألق بالحيوية، عاكساً استجابة عميقة في تألق عيني الرجل الذي كان ينظر إليها. ولكنها كانت من الاستغراق بحيث لم تلحظ نظراته تلك، وكومة المستندات ترتفع شيئاً فشيئاً على المنضدة بجانبهما.

ـ عرفنا، على الأقل، أن المحتويات لم تتلفها النيران.

قال لايل ذلك مسروراً وهما يعيدان الأوراق إلى مكانها بعناية وتمهل وكأنهما يكرهان انتهاء هذه المهمة.. أخيراً أغلق لايل باب الصندوق على المستندات، فكان أن انتهت اللحظات السحرية التي مرت بهما. وراحت الساعة تدق منذرة بأنها الساعة الثانية عشرة ليلاً.

مدّ لايل يديه يمسك بأصابع جاي، فتركتها في قبضته دون أن تقاومه ثم جذبها لتقف وراح يحتضنها ويضع ذراعيه حولها، فانحنت إلى الخلف وعيناها الكبيرتان في عينيه، وشفتاها تهمسان باسمه.

ـ لايل...

قبل دعوتها المشتركة برقة بالغة لا تحمل أي أثر للخشونة التي تملكته أثناء العصر، وظلا متشبثين ببعضهما بعضاً... ثم شعرت به يجفل ويرتجف وكأنه شخص كان يكبت نفسه ثم تركها على هواها.. كانت تشعر بهذا الكبت الذي يعاني منه من خلال عناقه الذي يكاد يسحقها وأحسّت أيضاً بارتجافه الذي سرى إليها وكأن بينهما تياراً كهربائياً..

ـ أحبك.. أحبك..

ضاعف من عناقه الذي كان فيه كثير من الهيام فخفق قلبها أكثر فأكثر وشعرت بالنار تحرق وجنتيها وبكيانها يطيعه.

ـ سيدي، هل يمكنك الحضور لحظة؟

دوى قرع عنيف على الباب، وتعالى صوت قروي كأنه قادم من العالم

الآخر.. مضت لحظة جمدا فيها في موضعهما وكأن السحر تملكهما.

ـ سيدي.

نادى الصوت مرة أخرى بلهفة فتبدد السحر وأبعد لايل جاي عنه، ثم وصل إلى الباب بثلاث خطوات.

ـ ماذا هناك؟

ـ إنها النعجة يا سيدي.

ـ أنا قادم.

التفت إلى جاي فتلاقت أعينهما:

ـ اتركي صندوق الأوراق حيث هو، فسآخذه عندما أعود.

شردت عيناه الآن إذ انصرف ذهنه إلى النعجة. أما تلك اللحظات الحلوة الثمينة فقد أصبحت منسية...

أضاف قائلاً: «قد أغيب ساعات».

قد يكون هذا إلى الأبد بالنسبة إليها. في تلك اللحظة كرهتْ النعجة وكرهت لايل الذي وضعها جانباً ليذهب إلى النعجة.. كانت تعلم أن تفكيرها هذا غير منطقي لكنها لم تهتم، ولم تستطع مكافحة مشاعرها التي كشفت عنها له بوضوح مذل. غير أنه لم يشاركها تلك المشاعر أبداً، وإلا لما تركها بهذه السهولة ليجيب دعوة الراعي... ولمّا فكرت في الموضوع أكثر احترقت خزياً لأنها تذكرت كيف تحايل عليها حتى كشفت عن مشاعرها؛ تلك المشاعر التي اشتعلت في كيانها كما كانت النار تشتعل في المدفأة فتحوّلت الآن إلى رماد...

في الصباح التالي، تسلقت جاي السلم الألمنيوم الخفيف الذي اشتراه لايل لها، ثم أبعدت اللوح البلاستيك الخفيف الذي كان يغطي النافذة. أثناء قيامها بذلك، جعلت من نفسها هدفاً للريح القارسة التي كانت تعصف من خلال الفجوات الخالية من الزجاج، ولكن لم يكن بإمكانها تجنب ذلك.. على الأقل بددت لسعة البرد من نفسها بقايا ما عانته الليلة الماضية من إرهاق، وحين رأت لوحاً من الخشب المعاكس يغطي الدرجات الثلاث

السفلى في السلم توترت شفتاها بموجة من الضيق ليس لها ما يبررها. فهذا يعني أن لايل لا يثق بأنها ستتخذ الاحتياطات اللازمة بنفسها. ترددت، ثم خطت فوق الفجوة إلى أول موطئ قدم وجدته. سيجد تيم أو هولي من المستحيل أن يقوما بذلك، ولكنها قامت به بسهولة... اعترفت لنفسها، كارهة، بأن لايل أحسن اختيار السلالم بحيث تقدر على العمل بأمان تام.. أنهت عملها في أخذ القياسات بوقت قصير جداً، يحثها على السرعة التيار الهوائي القارس الذي كان يتخلل كنزتها السميكة بسهولة.

هبطت الدرجات وهي تحمد الله على إنهائها هذا الجزء من العمل، ثم عادت وهي ترتجف برداً إلى مدفأة الغاز وأخرجت مواد التخطيط. ما زالت بحاجة إلى النافذة مكشوفة لتضع تخطيطاً مبدئياً يمكّنها، فيما بعد، من وضع تخطيط بالألوان المائية.. كانت تعمل بعناية بالغة بالرغم من البرد وشيئاً فشيئاً أخذ يتشكل شعار أسرة غاونت على الورق: عصا الراعي يتصالب مع السيف، جندي مدرّع بالزرد أسفل، وراية خفاقة فوق، يحدق بها سنابل قمح.

ما إن عطست حتى سمعت صوت لايل يقول من ورائها:

ـ لماذا نزعت اللوح البلاستيكي عن النافذة؟ ستسببين لنفسك الإصابة بالبرد.. ما وضعت اللوح البلاستيك إلا لتبقى الغرفة دافئة.

أجابته بخشونة كارهة انتقاده لها:

ـ وأنا أنزلته لكي أتمكن من أخذ قياس النافذة، ولكي أستطيع وضع رسم تخطيطي.. لا يمكنني أن أرى التفاصيل بوضوح من خلال اللوح البلاستيكي.

قال لايل بإصرار مقطباً جبينه:

ـ لا حاجة بك لإنهاء العمل في صباح واحد.

ردت عليه بحدة:

ـ لم يمض عليّ هنا أكثر من خمس دقائق، وأنا أفضل أن أنهي الرسم التخطيطي في جلسة واحدة إذا استطعت.

قال لها متحدياً:

ـ بل أمضيت هنا أكثر من خمس دقائق بكثير.. عندما لم تأتي إلى المطبخ لتناول وجبة الساعة الحادية عشرة، طلبت مني مارتا أن أحضر إليك شرابك.

اتّسعت عينا جاي التي نظرت في ساعتها فوجدت أن الحق معه. وكان فنجان حساء يتصاعد منه البخار موضوعاً على المنضدة قريباً من يدها.. عبقت رائحته في أنفها وهو يتحدث ورأت شيئاً آخر بجانب الفنجان.. لفافة كبيرة الحجم.

قال لها وهو يراها تنظر إلى ذلك:

ـ إنك بحاجة إلى أكثر من الحساء لتدفئتك. الكنزة الصوفية لا تفيد كثيراً في دفع هذا الهواء البارد.

ونظر إلى ملابسها بعدم رضا، فتورد وجهها وقالت بحدة:

ـ لم آت إلى هنا مستعدة للعمل بل جئت لهدف واحد وهو تسليمك طفلين.. لو كنت أعلم أنني سأبقى هنا للعمل، لحملت معي كامل أمتعتي.

ـ سأجهزك في هذه الحالة بما يلزمك من معدات.

ـ السلم الألمنيوم ملائم.

رفضت الاعتراف بأنه مثالي للعمل.

ـ أرجو أن تجدي هذا ملائماً مثله.. أريد أن يحميك من الهواء البارد.

ثم تناول اللفافة عن المنضدة وعندما فتحها شهقت لأنها رأت معطفاً طويلاً من جلد الغنم في اللفافة.

ناولها إياه قائلاً:

ـ جربيه لنرى إن كان قياسه مناسباً.

لكنها بدلاً من أن تدخل ذراعيها بكمي المعطف، وقفت تواجهه بتردد وعيناها تلتهمان المعطف وهي تشهق:

ـ من المستحيل أن أستطيع العمل بهذا.

فقال بصوت كالفولاذ: لماذا لا؟

أجابت متلعثمة:

- إنه.. إنه رائع الجمال.. إنه أجمل من أن أرتديه أثناء العمل.. هو ليس لي، فمن هي صاحبته؟

- أنت.

- لكنني.. إنه لا...

وسكتت وقد أدركت ما يعنيه، فلا شك أن هذا هو السبب الذي جعله يتركها في المتجر أمس، ويذهب لشأنه. هذا هو السبب في عودته وهو يظنها غادرت المكان. كان يريد شراء المعطف.

قالت رافضة بشدة:

- لا يمكنني أبداً أن أقبل هدية ثمينة كهذه.

قال: «من قال إنه هدية؟»

التهب وجهها غضباً.. يا له من رجل لا يطاق!

قالت وقد خنقها الغضب: «يا لك من رجل صعب!»

قاطعها برقة: «اعتبريه معطف العمال الواقي أثناء وجودك في هذا المنزل».

هزت كتفيها:

- ما دام الأمر هكذا، لماذا أهتم بنوعيته؟

لكن ملامحها كانت متوترة لأن لايل نزّل مستوى هذا المعطف إلى مستوى معطف الراعي الواقي من المطر.. وخلال الصمت المتوتر، أدارت ظهرها إليه مادة ذراعيها، فوضع المعطف على كتفيها يساعدها على ارتدائه، وقد لاءمها وكأنه صنع لها خصيصاً.. كان رائعاً دافئاً سخر من الهواء القارس المندفع من النافذة ولكنه لم يستطع أن يذيب الثلج في قلبها الذي يحمل كآبة القطب الشمالي المتجمد، لعلمها أن من يبعث هذا الدفء هو هذا المعطف، وليس لايل. ولعلمها بأنه ما اشتراه لها إلا لتستطيع القيام بعملها بشكل جيد.

أمسك بها يميلها لتواجهه وعيناه تقوّمان المعطف. سألها: «هل هو..؟»

- ملائم تماماً.

أجابته بذلك باختصار... إذا كان يتوقع ثناءً واعترافاً بالجميل فقد خاب أمله.

أضافت تتعمد إثارته: «سأعيد إليك المعطف والسلم بحالة جيدة عندما أنهي عملي هنا».

أنزل لايل هذا المعطف إلى مستوى ملابس العمل الواقية، فتعمدت جاي زيادة إنزاله، مشبهة إياه بمجرد أداة من أدوات العمل.

قالت تثيره بشكل طائش: «هل تريد مني أن أوقع وصلاً باستلامه؟»

لقد جرح كرامتها وتريد أن تجرحه بالمقابل.

أردفت تقول: «لديّ بعض أوراق الإيصالات التي أخذتها من المخزن».

فقال بعنف: «سنستغني عن الإيصال وهذا كل ما عليك أن تضعيه من توقيع».

جاء عناقه عنيفاً ملؤه الغضب وكأنه يعاقبها لعدم اعترافها بالجميل.. شعرت للحظة قصيرة بالندم لتعنيفها له، ولكن وقت الندم كان فات. وعندما انتهى من معانقتها، دفعها عنه بعيداً وكانت شاحبة ترتجف من برد لا ينفع معه أي معطف من جلد الغنم في العالم.

قال لها بخشونة: «اشربي حساءك قبل أن يبرد».

ارتدّ على عقبيه وغادر الغرفة دون أن يلتفت إليها، ثم انغلق باب غرفة الطعام خلفه بعنف هز أعصابها وأيقظها من غيبوبتها، وامتدت يدها بحركة آلية إلى فنجان الحساء الذي ما زال ساخناً.

أدفأها الحساء بمقدار ما هدأ أعصابها، ولكنه لم يستطع أن يعيد إليها تركيز الذهن. سمعت صوت وقع أقدام في الخارج فشعرت بالتوتر، ولكن الخطوات تلاشت. وعندما رفعت رأسها سمعت صوت باب ينغلق، ولكن

لم يحضر أحد. . . حاولت تركيز انتباهها على عملها ولكن عبثاً، وبعد المحاولة الثالثة هتفت ساخطة وهي تلقي بالدفتر والقلم على المنضدة:

- لا فائدة، سأعود فيما بعد وأحاول مرة أخرى.

حملت فنجانها الفارغ ثم سارت نحو الباب. . ستعود به إلى المطبخ حيث تجلس مع مارتا والأولاد، فلعل هذا يعيدها إلى طبيعتها.

- شكراً للحساء يا مارتا.

- ضعي الفنجان في الحوض فستغسله ديردي الخادمة عندما تنهي الرفوف. إننا نقوم بتنظيف شامل.

- هل آخذ الطفلين من طريقكما؟

ستفيدهما النزهة، وقد تخفف من الغليان الذي تشعر به داخلها.

نظر إليها تيم بذعر لفكرة افتراقه عن الحمل الذي يرضعه:

- لا يمكننا الذهاب إلى النزهة الآن، يا جاي. فلدينا حملان آخران نرضعهما.

قالت مارتا: «الطفلان لا يعيقانني، بل العكس فهما يريحانني من العناية بالحملان. لقد أحضر السيد لايل حملين آخرين هذا الصباح. إنهما توأمان وأظنهما سيكونان بحاجة إلى عناية فائقة ليستطيعا الوقوف على قوائمهما».

هذا يعني أن النعجة ماتت! شعرت جاي بالكآبة وتمنت لو أنها لم تأت إلى المطبخ لترفه عن نفسها، إذ شعرت أنها زائدة عن الحاجة وكأنها كانت هي في طريقهم وليس الطفلان.

- أظنني سأذهب لأتمشى في الهواء الطلق. .

قالت مارتا:

- النزهة في الهواء الطلق شيء جيد تماماً مع أن الطقس بارد لكن معطفك هذا مناسب تماماً.

ونظرت إلى معطف جاي باهتمام.

قالت ديردي الخادمة:

- شيء جميل أن يرى المرء الشمس بعد تلك العاصفة التي مرت بنا. لقد اقتلعت شجرة الجميز الكبيرة فسقطت بجانب بيت أبي الزجاجي.

خرجت جاي ثم دارت حول المنزل وهي تفكر في أن سقوط شجرة الجميز يلهمها بفكرة. .

إذا كانوا يستعملون أحجار المقالع المحلية لترميم المنزل، لماذا لا يستعملون خشب السنديان المحلي لترميم الأثاث في الداخل؟ قد لا تكون الشجرة الساقطة في أرض ناثان ويلسون شجرة سنديان، ولكنها تستحق الفحص. وهذا يجعل لنزهتها فائدة.

وهكذا وضعت يديها في جيبي معطفها العميقتين، ثم زادت من اتساع خطواتها.

كانت الأبقار البيضاء والسوداء ترعى بسلام في الناحية الأخرى من الحقل المستطيل، فنظرت إليها جاي بحذر، ثم تقدمت نحو اللافتة الخشبية التي تبعد مسافة حقلين حيث قال لايل إن الشجرة الساقطة موجودة. كان ثمة حاجز يبين حدود أرض ميلبول هال. اختارت جاي مكاناً منخفضاً حشرت نفسها خلاله، وشعرت بالراحة لأنها ترتدي البنطلون والحذاء المطاطي فهذا ما ساعدها على اجتياز السياج بسهولة. . توقفت عند السياج تنظر إلى حيث كانت الشجرة ملقاة على بعد ثلاثين قدماً، وآثار أظلاف بقر عميقة في الأرض ما زالت طرية. . قفزت جاي إلى الأرض ولكن كان من الصعب السير حيث فجوات أظلاف البقر، فأخذت تنقل خطواتها بحذر.

إنها شجرة سنديان! وأخذت تحضن نفسها مسرورة. لقد أثمرت بصيرتها. . رأت أن قمة الشجرة الكبيرة تلقت صدمة الصاعقة، فبقيت هناك ثروة من الأخشاب كافية لصنع أثاث جديد. . حسناً، ستخبر لايل بفكرتها، وسيكون سروره بالغاً باقتراحها هذا وهو الفخور بمنزله الجميل، كما أنه على علاقة طيبة بجاره كما يبدو، وهذا يعني أن من السهل مفاوضته لشراء شجرة السنديان. . ارتفعت معنويات جاي وهي ترى عند حاجز الأشجار هبة أخرى لها، أزهار النرجس! ما أجمل هذا! كانت الأزهار

الصفراء في كل مكان. وبعد لحظات، كانت جاي راكعة على ركبتيها بين الأزهار، تملأ يديها من جمالها. إنها، بالضبط، ما تحتاجه غرفة الإفطار من تألق وإشراق. . أخذت تشم أريجها الفواح، وسرعان ما جمعت باقة منها ثم أسرعت بالعودة من فوق السياج، تستعجل الوصول إلى المنزل البعيد، والأحلام تملأ خيالها. . ستضعها في زهرية ثم تنتظر أن يلاحظها لايل بنفسه. هنالك مفاجأتان له، ستخبره بهما على مائدة الغداء. . . واستخفها المرح والابتهاج!

***

٩ ـ صرخة في وجه الريح

صاح لايل بها: كنت. . أين؟

كانت ردة فعله لهذا الخبر أشبه بانفجار قنبلة منه بدهشة، نظرت إليه جاي مبهوتة من ردة فعله هذه.

ضرب صحنه بالشوكة والسكين: كنت أين؟ ثم قفز واقفاً فانقلبت كرسيه إلى الخلف فلم يأبه لها وهو يميل على المائدة يحملق في جاي يسألها:

ـ أتراك فقدت عقلك؟

ـ ذهبت لأرى الشجرة التي سقطت في العاصفة. . . أردت أن أعرف إن كانت شجرة سنديان أم لا.

قاطعها بلهجة الاتهام: «تقولين إنك ذهبت إلى أرض ناثان ويلسون؟»

أجابت بحدة: «لا بأس. لقد أخطأت، ماذا في ذلك؟ إنها ليست جريمة، كما إنني لم أسبب أي ضرر، كل ما فعلته هو أنني جمعت بعض أزهار النرجس من جانب حاجز الأشجار في الناحية الأخرى من السياج، وأثناء ذلك تلوّث حذائي بالوحل حيث كانت الأبقار ترعى في الحقل عند الأشجار».

عندما رأت لايل وجهه الجاحد تمنت لو أنها لم تكلف نفسها ذلك العناء، وتمنت لو أنها أخذت الأزهار إلى غرفتها واستمتعت بها وحدها.

قالت مارتا وهي تضع إناء الحلوى من يدها على المائدة:

ـ آه! يا آنسة جاي. هل ذهبت حقاً إلى أرض ناثان ويلسون؟ أخبرني بوب بذلك.

ـ وما هو المخيف في نائان ويلسون؟ لا يمكن أن يكون غولاً، بدا لي غاية في التهذيب عندما حدثني تليفونياً هذا الصباح لكي أبلغ رسالته إلى لايل.

صاح لايل بها ثائراً: «تتذكرين تلك الرسالة ومع ذلك ذهبت إلى أرضه حيث ترعى أبقاره عادة؟»

ـ قالت رسالته إنك يجب أن لاتذهب لرؤيته، وهذا كل شيء... على كل حال، لم تكن المواشي هناك وإلا لرأيتها من فوق السياج.

قال بخشونة: «بما أنك غامرت بالقفز من فوق السياج فلن يكون هناك أثر لمواشي ميلبول هال أيضاً».

نظرت جاي بحيرة إلى وجه مارتا الخائف، وإلى الثورة في وجه لايل وقالت وقد سرت في جسدها قشعريرة:

ـ لم أفهم.

قال بمرارة: «سأخبرك إذن! بسبب غبائك الذي لا يصدق، قد ينتهي الحال بمواشينا إلى أن تُقتل جميعاً.. عمل الحياة كله ينهار من أجل باقة نرجس. أين حذاؤك؟»

كان هذا السؤال غير متوقع... وحينما نظرت إليه دون أن تفهم، بدا عليه فروغ الصبر:

ـ الحذاء الذي كنت تنتعلينه أثناء النزهة.

مدت قدميها من تحت المائدة ليراهما:

ـ إنه نفس حذائي هذا، لقد مسحت عنه الوحل على ممسحة باب المطبخ.

ـ سآخذه.

وقبل أن تدرك ما سيفعل، دار لايل حول المائدة، وانحنى بسرعة يسحب الحذاء من قدميها.

ـ ما الذي جعلك تفعل هذا؟ أعده إليّ حالاً.

صرخت جاي بذلك غاضبة، ولكن لايل تجاهلها وكأنها لم تقل شيئاً،

ثم التفت إلى مارتا يسألها:

ـ أين تضعين سائل الصودا الذي تغسلين به؟

ـ في غرفة الغسيل.. سأحضره لك.

ثم أسرعت خارجة خلفه. ودون تردد، قفزت جاي من مكانها ولحقت بهما وأصابع قدميها تتقلص من برودة الأرض الحجرية في غرفة الغسيل خلفهما.

سألته غاضبة: «ما الذي ستفعله بحذائي؟ ما الذي ستفعله؟»

إنه حذاء العمل المفضل لديها ولم تحضر معها غيره، كما أنّ من الصعب العثور على حذاء مثله بسرعة.

أجابها عابساً: «أنظفه» ثم وضع ملء يديه من الصودا في دلو ماء قريب من الغليان. أخذت تراقبه بذعر وهو يحرك المادة الكاوية في الماء بالعصا المخصصة لذلك.

صرخت مذعورة وهي تراه يمسك فردة منه بيد، وبيده الأخرى فرشاة بيد طويلة:

ـ لا أظنك ستضع حذائي في هذا فستتلفه، أعده إليّ.

ثم حاولت أن تنقذ حذاءها منه.

قال بغموض وهو يغمس الفرشاة في المحلول:

ـ حذاء مقابل قطيع من الماشية الأصيلة.

مدّ الغضب جاي بقوة مضاعفة، فأمسكت بفردة الحذاء محاولة تخليصها من يد لايل، وقالت:

ـ لا تلمس حذائي بهذا! اتركه.

صرخت بذلك ثائرة ثم جذبته بكل قوتها وقد نسيت الدلو، فاصطدم مرفقها بناحية الزنك فيه. وبحركة غريزية، تركت جاي فردة الحذاء لتمسك بمقبض الدلو، لكي تمنع المحتويات من الاندلاق. فعل لايل الشيء نفسه في نفس اللحظة، فسقط منهما ما كانا يحملانه، وهكذا سقطت فردة الحذاء في السائل الكاوي.

صرخت به ثائرة: «فعلت ذلك متعمداً».

أجابها بحدة: «وسأرسل الفردة الأخرى في أثرها، فعندئذ أتأكد أنهما معقّمتان».

هتفت جاي ذاهلة: «معقمتان؟ ما الذي تعنيه بذلك؟»

- أعني أنك سرت في أرض ناثان ويلسون بهذا الحذاء، وأسوأ من ذلك أنك اخترت مكاناً اعتادت أبقاره الجلوس فيه.

- ولكن...

أسكتها بقوله بلهجة الإتهام:

- أعني أن راعي مواشي ناثان ويلسون أخبره بأن إحدى أبقاره كانت تلهث وقد عافت طعامها هذا الصباح. وهذه أولى علامات مرض الفم والأظلاف.

- لكن ناثان ويلسون لم يقل شيئاً عن مرض الفم والأظلاف، عندما اتصل تليفونياً هذا الصباح.

تملكتها موجة من الفزع وهي تسمع كلمات لايل هذه. مرض الفم والأظلاف.. هذا الكابوس هاجس كائن في أحلام كل صاحب مزرعة حيوانات، وربما أحضرت هي العدوى إلى أرض لايل.

- أهذا أنت يا بوب؟ أين المواشي؟

ألقى لايل بهذا السؤال على مساعده الذي كان يمسح قدميه عند عتبة الباب.

- ما زالت حيث كانت طوال الصباح، يا سيدي.

- ألم تذهب إلى الحقل؟

- ولا خطوة، وهي لا تريد ذلك.. إنها في قطعة وافرة العشب، ومن غير المحتمل أن تغادرها إلا بعد أن تنهي أكل العشب بأجمعه.

- أخبر الراعي أن يأخذ معدات السياج الكهربائي ويقيمه أمام الماشية كي يتأكد من عدم عبورها إلى الطرف الآخر من الحقل.

- سأذهب وأقوم بذلك بنفسي يا سيدي.

نظر لايل إليه بتفحصه بحدة:

- ليس الآن. بعدما مسحت قدميك على ممسحة الباب ادخل وامسح حذاءك بهذا المحلول قبل أن تسير خطوة أخرى.

ثم أوضح له باختصار سبب طلبه هذا، فكان في الذعر الذي كسا ملامح بوب البريئة ما أكّد لها فداحة خطأها في تعدي حدود الأرض.

قال لها بوب مؤنباً: «إذا كنت تريدين نرجساً يا آنسة جاي، في أرضنا الكثير منه».

قالت تخفف من جرحها: «لكنني لم أذهب خصيصاً لأجمع النرجس...».

ولكن لايل قاطعها بسؤال:

- هل ركعت على الأرض أثناء قطفك الأزهار.

أومأت بتعاسة: «طبعاً ركعت».

- إذن، يجب تعقيم بنطلونك.

قالت محتجة: «من المؤكد أن هذا العمل زائد عن الحاجة، فلا يمكن غسل هذا البنطلون لأنه من الصوف الخالص».

رد عليها بحدة: «لا شيء زائد عن الحاجة في منع وباء مرض الفم والأظلاف، ولا يهمني نوع بنطلونك الذي يجب أن يُعقم كما عقمنا الحذاء».

- لن أسمح بأن...

ثارت جاي على لهجة السيطرة في صوته.

- بل ستخلعين بنطلونك، وإلا جعلتك تقومين بذلك قسراً؟

وتقدم نحوها خطوات تنذر بالشر، ففهمت أنه لا يعبث بالقول.

- لا بأس، لا بأس. سأصعد إلى غرفتي لأغير ثيابي.

أكدت لها نظرة منها إلى ملامحه المتحجرة أنه لن يمتنع عن القيام بذلك شخصياً، لو احتاج الأمر... ولأنها لم تكن مستعدة لهذه المجازفة اندفعت خارجة من الغرفة، وعندما وصلت إلى الردهة، رنّ التليفون فوقفت

ورفعت السماعة بحركة آلية.

ـ هنا ميلبول هال.

ـ ناثان ويلسون يتكلم.

اشتدت قبضة جاي على السماعة: نعم؟

كان صوتها متوجساً. ما الذي جعل جار لايل يتصل؟ ماذا سيقول؟ أغمضت عينيها غير قادرة على سماع احتمالات أن تكون...

ـ أريد أن يعلم لايل الآن حالاً أنه بات قادراً على المجيء إلى هنا لنتناقش في مسألة تنظيف النهر.

كان الرجل يتحدث بسرور.

شهقت جاي وهي تسأله بدهشة خالصة:

ـ يذهب ليراك؟ أما قلت إن بقرتك...

قال الرجل ضاحكاً:

ـ أتعلمين ماذا كانت المسألة؟ تلك البقرة الغبية ابتلعت خيطاً من القنّب، والله يعلم من أين جاءت بالقنب، ولكن تأثير ذلك كان وخيماً. وقد قطع البيطري عمله لكي يزيل الخيط دون أن يخنق الحيوان، لذا لا عجب أنه كان يلهث.

ـ وهل البقرة..؟

ـ إنها بأحسن حال الآن. أخبري لايل بذلك، فلا أريد أن يبقى قلقاً دون ضرورة لذلك.

ـ أخبره أنت بنفسك لأنه لن يصدقني.

قالت ذلك متصنعة المزاح ونجحت في ذلك لأن ناثان ويلسون ضحك.

أما هي فأردفت:

ـ سأذهب وأخبر لايل كي يأتي ليكلمك.

عادت إلى غرفة الغسيل والمعركة تلمع في عينيها:

ـ الأمر كله لم يكن جرثومة بل خيط قنب.

ـ من أين عرفت هذا؟

توترت شفتاها:

ـ لأنه ينتظر على الهاتف الآن وقد أخبرني بهذا لتوه. طلب مني أن أخبرك بذلك فقلت له أن يخبرك بنفسه لأنك لن تصدقني، وهو ينتظرك الآن.

وضع لايل فردة حذائها التي كان ينظفها، ثم سار إلى التليفون وما زال عدم الاقتناع على ملامحه.

عندما عاد سألته بحدة، منتظرة منه الاعتذار:

ـ هل أنت مسرور الآن؟

ـ تماماً.

قالت له بعدم تصديق: «هل هذا كل ما لديك لتقوله؟ لقد أتلفت أحسن حذاء عندي...».

ثم أخرجت حذاءها من الدلو بالعصا، وأخذت تهزه أمام عينيه والماء يقطر منه.

ـ لدي ما أقوله. لقد تلقيت أنت رسالة ناثان ويلسون هذا الصباح، وعليك عندما تتلقين خبراً من ذلك النوع أن تستعملي المنطق في تفسيرها.

تورد وجهها غضباً. لكنه تابع يقول: لو كانت الإصابة بذلك المرض قد ثبتت...

فقاطعته قائلة: «ولكنها لم تثبت، أما بالنسبة إلى استعمال المنطق فما أدراني أنا بما تضمنته تلك الرسالة؟ إن معرفتي العملية تنحصر في تلوين الزجاج وليس في تربية البقر».

قاطعها عابساً: «من المؤسف إذن أنك لم توسعي آفاقك.. فمنذ قدومك إلى ميلبول هال، أعطيت مدبرة منزلي، وعرضت بيتي وابنة أختي، والآن قطيع ماشيتي، للخطر».

قالت بغضب: «هذا قول شرير منك».

ـ ومع ذلك فهو صحيح... أكون شاكراً لك لو تذكرت، في الوقت الباقي لك هنا، أن عملك هو إصلاح البيت وليس هدمه».

www.elromancia.com

الوقت الباقي لك هنا! أخرسها الذهول، بينما تابع لايل يقول: «الشكر ليس لك لأن البقرة ابتلعت خيط القنب، ولأن القصة كلها زائفة».

ـ ما هو خيط القنب يا خالي لايل؟

قال تيم ذلك وهو يدخل قافزاً إلى غرفة الغسيل منهياً بذلك هذا الشجار.

أجابه لايل وهو يخرج من خزانة المطبخ كرة من خيوط القنب:

ـ هذا هو خيط القنب ونحن نستعمله لربط الأشياء في المزرعة.

لمسه الطفل بإصبعه وقال:

ـ إن عليه شعراً.

ـ إنه خشن ولكنه قوي. والآن عليّ أن أذهب إلى بوب قبل أن يرسل الراعي ليثبت السياج الكهربائي، فلديه ما يكفي من العمل بدلاً من إضاعة وقته بعمل لا ضرورة له.

دلت حملقته في جاي على أنه يلومها لإضاعة وقت رجاله.

تحولت جاي إلى تيم: «فلنخرج ونطيّر طائرتك الآن أثناء هبوب الريح» كانت تشعر بغليان مشاعرها بسبب أحداث الساعة الأخيرة، لذا هي غير قادرة على العمل وقد تساعدها هذه النزهة، مع تيم وهولي، على استقرار ذهنها.

ـ هيا بنا يا هولي. سأساعدك على ارتداء ثوب التزلج.

قال تيم مباهياً: «بإمكاني أنا ارتداء ملابسي بنفسي». ثم ركض صاعداً إلى الطابق الأعلى متلهّفاً للخروج.

وعندما ظهر بعد فترة مرتدياً ثيابه، قال:

ـ نسيت طائرتي في المطبخ.

فأطلقت جاي هولي المتلهفة من يدها لتلحق به، وهي تقول لهما باسمة:

ـ اخرجا أنتما وسألحق بكما بعد أن أحضر معطفي.

وابتسمت للطفلين المبتهجين. ترددت وهي تنظر إلى معطفها المعلق على

باب غرفتها، ثم هزت كتفيها. لقد أتلف لايل معطفها، لذا بات يحق لها أن ترتدي معطفه هذا من باب التعويض... وماذا عن الحذاء؟ عبست وهي تدس قدميها في حذاء منخفض الكعبين لم يكن مناسباً لنزهة كهذه، ولكن لم يكن أمامها خيار آخر فحذاؤها الآخر منقوع بالصودا الكاوية.

بدا عيب الحذاء واضحاً حين أصبحت مع الطفلين في الحقل.

ـ ألا يمكنك تطيير طائرتك في الفناء؟ الأرض هناك أكثر استواء.

ـ ستشتبك بأعمدة هيكل البناء، وإذا رفعتها إلى أعلى قدر إمكانك فسأحل أنا الخيط، فلا يكون عليك أن تركضي بسرعة.

لم تستطع الركض بشكل آمن على الإطلاق. كان الحقل مغطىً بحشائش الشتاء، والأرض موحلة إثر المطر، لذا أخذت قدماها تنزلقان بعنف كلما حاولت الركض.

ـ لا رجاء في هذا...

شهقت بهذا القول بعد عدة محاولات منها للركض انتهت بالطائرة مجرورة على الأرض بشكل محزن بدلاً من الارتفاع في الجوّ.

لا، لا يمكنها الركض بهذا الحذاء..

قال تيم بثقة: «سأذهب وأطلب المعونة من بوب».

ـ لا! لقد غضب خالك مني الآن لأنني ضيعت وقت رجاله، فكيف إذا طلبت من بوب أن يلعب معك بالطائرة أثناء ساعات العمل؟

خطرت لها فكرة: «اسمع، سأقف على قمة التل وأمسك بالطائرة، أما أنت فتركض نحو المطحنة. وحالما أشعر باشتداد الخيط في يدي، أقذف بالطائرة في الجو إلى أعلى ما يمكن».

ـ عليّ أن أركض جيداً، لكن بوب لم يضع خيطاً طويلاً.

نظر تيم إلى ذلك الخيط مفكراً ثم أشرق وجهه.

ـ سأطيله بقطعة من خيطان القنب التي لخالي.

وركض نحو المنزل ليعود، بعد دقيقة، بخيط طويل.

قالت تحذره: «اربطه جيداً، وإلا فقدت طائرتك».

قال متذمراً: «لا أعرف سوى هذه العقدة».

ـ دعني أربطها.

وأخذت تتذكر ما كانت تفعل في حداثتها، وأمكنها أن تعقد الخيط بشكل مضمون، ثم ناولت الخيط لتيم الذي لفه حول معصمه.

ـ انتظر حتى أصعد إلى قمة التل قبل أن تبدأ بالركض. سأصعد إلى أعلى مكان أستطيعه لكي أتمكن من الارتفاع بالطائرة بشكل كافٍ.

ثم ارتدت وبدأت بصعود التل، وعندما وصلت إلى القمة لوّحت لتيم بيدها، وتعمّدت تحويل وجهها عن ناحية فناء المزرعة. كان لايل وبوب يعملان حول السياج، فصوت مطرقة يتجاوب في الأنحاء. ثم توقف الصوت ومع أنها لم تنو النظر، لم تستطع منع نفسها من الالتفات. كان رأس لايل قد ارتفع عن عمله ومضى ينظر إليها، فأجفلت متوقعة سماعه يصيح بها، ولكنها عادت فتمتمت بينها وبين نفسها بضيق بأن من غير الممكن أن ينتقدهم لكونهم في الحقل، فلا ماشية هنا وهم لا يزعجون أحداً.

وهم لا يزعجون لايل أيضاً كما يبدو، لأن صوت المطرقة عاد بعد لحظات.

أعادها صياح تيم إلى المهمة التي في يدها. أخذت الطائرة تنجذب في يدها. وعندما شدَّ الصبي الخيط من عنده، قذفت الطائرة إلى أعلى بعنف، وأخذت تراقب مسرورة، الريح ترفعها فتحلق في الجوّ عالياً بينما تيم يركض.

أخذت تهتف مع هولي فرحاً. لقد نجحوا أخيراً. ثم أخذت تحدق إلى أعلى، مأخوذة، وقد عادت بها الذكريات إلى طفولتها المنسية وأفراحها.

ـ هيا بنا نلحقها.

أمسكت جاي بيد هولي، ثم ركضتا نحو المطحنة وذهنها مشغول بحذائها غير المناسب.

وقفت هولي قائلة: «فلننتظر خالي لايل».

ـ لن يأتي خالك لايل لأنه مشغول بإصلاح السياج.

ـ لا، بل هو يركض نحونا.

نظرت جاي حولها، وقطبت جبينها: «هذا صحيح».

كان لايل قفز من فوق السياج، ثم ركض نحوهم يصيح بهم.

ـ جاي!

أخذ يلوّح بذراعيه ويكرر صياحه. وقفت مكانها حائرة.

قفزت هولي مسرورة: «إنه قادم ليلعب معنا».

تملك جاي الاستياء: «لا، ليس الأمر كذلك...».

تملكها الذعر فاحتضنت هولي وأخذت تنظر حولها.. لكن الحقل كان خالياً إلا منها ومن الولدين وها هوذا لايل الآن يشير إليهم بعنف أثناء ركضه.

ـ لكن تيم أطلق الطائرة لتوّه.

إن عادة لايل أن يفسد اللعب... ينتظر إلى أن يتكبد تيم كل هذا العناء لكي يطيّر طائرته، وبعد ذلك يأمرهم بإنزالها.

عادت تقول: «دع تيم يستمتع بطائرته! لماذا عليه...».

واستدارت تنظر إلى تيم السعيد بنجاحه.

وفي لحظة رعب بالغ، أدركت السبب الذي يوجب عليه التوقف عن اللعب فوراً، فأخذت تصرخ مع لايل باستماتة: «تيم، اسحب طائرتك» وأخذت تركض نحوه بلهفة وهي تتعثر بحذائها: «تيم...».

سمع الصبي نداءها فالتفت إليها، ولكنها لم تعرف ما إذا فهم ما تقول.

ـ أرخ الخيط يا تيم.. أرخه.

كان لايل يصرخ بذلك وهو يركض نحوه متجاوزاً إياها.. أدركت، بعد فوات الأوان، السبب الذي جعل بوب يربط مثل هذا الخيط القصير إلى الطائرة... فالخيط الطويل جداً الذي أضافه تيم، والذي ربطه بنفسها لأجله، عرضة ليجذبه شراع المطحنة الدائر بسرعة.

عادت تصرخ وصوتها يتهدج من الخوف: «أرخ الخيط يا تيم». ولكنها

رأت طرف شراع المطحنة يشتبك بذيل الطائرة.

هدر لايل: «أرخ الخيط يا ولد!»

ولكن الخيط كان ملتفاً حول معصم تيم النحيل بقوة، وهذا يعني أنه ما كان ليستطيع فك نفسه حتى وإن سمع صياحهما. إنه لا يستطيع فك نفسه.. صرخ الصبي صرخة رعب هائلة هاتفاً: (جاي)... هذه الصرخة التي ظلت تتردد في أحلامها أشهراً طويلة بعد ذلك! كانت تجر تيم الآن قوة دوران أشرعة المطحنة مباشرة إلى بحيرة المطحنة.

ـ لايل، لايل!

لم تكن جاي واعية إلى تغير ندائها، بل لم تدرك أنها عادت إلى الصياح حتى ركضت بساقيها المرتجفتين نحو البحيرة، لكن فردة من حذائها التصقت بالطين فخلعتها ثم ركضت حافية غير مكترثة بما قد يصيب قدميها من ضرر.

خرج من المياه زوج من البط الوحشي يزعقان، ثم ابتعدا وهما يرفرفان بجناحيهما فوق الرؤوس، تاركين دوائر على وجه المياه حيث اختفى تيم. لمع في يد لايل شيء صغير عكس أشعة الشمس، ثم رأت جاي لايل يغط في الماء مختفياً هو أيضاً.

ـ لا تمسكيني بهذا العنف.. أنت تؤلمينني!

وصل إلى مسامعها احتجاج هولي من خلال ضباب. فلم تكن واعية أنها كانت تمسك بالطفلة على الإطلاق. عند ذلك أرخت جاي أصابعها ورفعتها إلى فمها تصد الشهقات التي لم تجرؤ على إطلاقها أمام الطفلة.

مرّ بها وقت لا تعرف مداه وهي واقفة تحدّق في سطح البحيرة الأسود المشؤوم، وقد تملكها رعب بدا وكأنه مستمر إلى الأبد. بعد ذلك تملكها شعور غريب بالدهشة فقد رأت رأس لايل يعود إلى الظهور، ثم كتفيه وذراعيه، وبين ذراعيه كان... تيم.. خرقة قرمزية مرتخية دون حراك.

نزلت جاي نحوهما تلاقيهما في المياه التي أخذت ترتطم بكاحليها، مالئة فردة حذائها الأخرى، لكنها لم تلاحظ البلل والبرد. هل هو...؟

لكن تيم تحرك قائلاً: «أشعر بالغثيان».

قلبه لايل بيدين ماهرتين، ثم ساعده على التخلص من الماء الذي ابتلعه. انتهت النوبة وبدأ تيم يبكي، ثم قال وهو يشهق باكياً: «فقدت طائرتي».

ـ سأصنع لك طائرة غيرها.

نظرت جاي إلى لايل غير مصدقة، لأنه كان رفيقاً ورقيقاً مع الطفلين.. ثم شعرت بطعنة سريعة من الغيرة عندما أخذ لايل ينظر باسماً إلى الطفل الذي أخذ يتنعش بسرعة.

ـ هل يمكنك الوقوف؟

ـ أظن ذلك. أنا بخير الآن.

خنقت جاي الدموع عندما تماوج على وجه تيم الشاحب شبح ابتسامته المعتادة.

ـ اركض معي إذن إلى المنزل لنجفف جسدينا. فالريح قارسة وثيابنا مبللة.

تملّك جاي تبكيت الضمير. كانت من الاهتمام بتيم، بحيث نسيت لايل، فهو أيضاً كان مبتل الثياب.

ـ هيا بنا يا هولي نركض خلفهما.

ـ لا تنسي فردة حذائك.

قالت هولي ذلك وهي تنحني لتلتقط فردة الحذاء الموحلة ثم ترفعها إليه.

ـ فردة حذائي غير مهمة.. آه! سأحملها.

عندما انحنت جاي بسرعة تغسلها في البحيرة، شعرت بأن لايل وقف والتفت ينظر إليها، وعيناه على قدميها الحافيتين وحذائها الممزق وفردة الحذاء الأخرى الملطخة بالوحل.

ـ هيا بنا يا تيم، اركض!

لم يكلمها. لم يسألها إن كان بإمكانها الوصول إلى البيت دون

مساعدة. . فهي لا تلبس سوى فردة حذاء. شعرت جاي بالهجران والغضب وهو يبتعد مع تيم، تاركاً إياها وحدها مع هولي بجانب البحيرة.

ـ أريد أن أقف لحظة. . . قدمي تؤلمني من الركض.

رفضت ساقا هولي القصيرتان الاستعجال في الطريق الصاعدة، فاضطرت جاي إلى التباطؤ في السير على كره منها.

عندما دخلت جاي إلى المطبخ أخيراً سألت مارتا: «أين تيم؟»

ـ وضعه السيد لايل في حوض حمام ساخن، وهو أيضاً يستحم.

أجابت مدبرة المنزل بذلك، مخففة بهدوئها المعتاد من توتر أعصاب جاي بشكل أفضل من أي شيء آخر.

ـ سينزلان في أية لحظة ليتناولا هذا الحساء الساخن. يبدو أن عليك أنت أن تتناولي شيئاً منه أيضاً.

ـ سأصعد إلى الطابق العلوي لأساعد تيم في ارتداء ثيابه.

ـ لقد ارتديت ثيابي بنفسي.

قال تيم ذلك وهو يدخل المطبخ مرتدياً كنزة وبنطلوناً نظيفين. جذبته إليها تحتضنه بلهفة لتقنع نفسها بأن ضرراً لم يصبه.

ـ دعني أرى معصمك حيث كان الخيط ملتفاً عليه.

رفع معصمه دون اكتراث: «إنها خدوش فقط. لقد قطع خالي الخيط بسكينه قبل أن يشتد ويجرحني» قال الجملة الأخيرة بفخر.

لو لم يكن بحوزة لايل سكين. . لو لم يكن مع لايل. . .

ـ عليك ألا تلف خيطاً حول معصمك بعد الآن أبداً.

كان لايل هناك فعلاً. . . يدخل من الباب ويتوجه إلى المدفأة وهو يتكلم بلهجة عادية وكأن إنقاذه ابن أخته من بحيرة المطحنة هو أمر يحصل كل يوم. نظرت إليه بصمت فشعره ما زال مبتلاً، يحيط بوجهه الأرستقراطي الملامح. . خفق قلبها لرؤيته، لكنه تجاهل نظرتها الضارعة.

ـ عندما أصنع لك طائرة جديدة، سأضع في آخر الخيط شيئاً يمكنك مسكه بيدك. هكذا، أنظر.

ومدّ يده إلى كرة خيط القنب التي ما زالت على المائدة، ثم لف خيطاً حول إصبعه ليريه كيف تعمل، ثم قال له يحذّره بلهجة خطيرة:

ـ ولكن لا تضف قطعة خيط أخرى في المرة القادمة، فأنت تعلم الآن أنها خطرة، بسبب شراع المطحنة.

قال تيم بيده أسفاً: «لن أفعل! لكن جاي تعرف عقدة أفضل من هذه. لقد ربطت القطعة الأخرى بطائرتي بعقدة لا تحلّ أبداً، وقد بقيت. أليس كذلك جاي؟».

شعرت جاي بجسم لايل يتصلب، وران الصمت في جوّ المطبخ. . حتى الساعة بدت وكأنها توقفت عن الدق. ثم وضع لايل فنجان حسائه على المائدة بعنف فمزق الصوت السكون، وأرسل رجفة في جسد جاي التي رفعت عينيها بسرعة فتلاقتا بعينيه. . تملكها الخوف بسبب الغضب الملتهب في نظراته.

قال لها ثائراً: هل أنت من ربطت قطعة خيط القنب الزائدة بطائرة تيم؟ هل كنت تعلمين أنه كان يريد إطالة الخيط الذي وضعه بوب له باعتباره آمناً لا خطر منه؟ هذا يعني أنك شجعته على ذلك بربطه له بنفسك. أليس كذلك؟

سألته وقد مائل غضبها غضبه:

ـ وما أدراني بأن الطائرة ستشتبك بشراع المطحنة؟

ـ كنت في الحقل ورأيت اتجاه الريح. لو فكرت قليلاً لأدركت الخطر الذي تمثله المطحنة. لماذا لم تركضي وتسحبي الطائرة عندما رأيت اتجاهها؟ كنت أقرب إلى تيم مني. كان بإمكانك إنقاذه من الوقوع في الماء أو مما هو أسوأ من ذلك.

مدت قدميها أمامه: «لم أستطع الركض بحذاء كهذا. هل نسيت أنك أتلفت حذائي المطاطي عندما بللته بالصودا الكاوية؟ ليس لديّ سوى هذا الحذاء الصلب لذا كان مستحيلاً الركض به على الأرض الموحلة. على كل حال، رأيتني وأنا أحاول قذف الطائرة في الجوّ، فلماذا لم تتدخل في الأمر؟

رأيتك ترفع نظرك وتراقبنا عندما كنت تصلح السياج مع بوب».

ـ لقد طمأنني بوب إلى أنه ربط خيطاً قصيراً آمناً في الطائرة، ولهذا لم أر ضرورة للتدخل.

تدخل تيم الذي كان بادي الحيرة لغضبهما المتبادل:

ـ قالت جاي إن الطائرة تعلو أكثر بالخيط الطويل.

صاح لايل بها غير مصدق:

ـ هكذا!! إذن لا يكفي أنك ربطت له الخيط بالطائرة، بل وضعت أيضاً هذه الفكرة في رأسه.

ـ لم أعلم أن المطحنة ستلف نفسها بذيل الطائرة ثم تجذبها إليها.

ـ كان عليك أن تفكري.

ـ وأنت أيضاً كان عليك أن تفكر قبل أن تترك كرة الخيط على مائدة المطبخ. كنت تعلم أن تيم ينوي استعمال طائرته. ما كان لك أن تترك هذا الإغراء في طريقه.

ـ عندما رأيت الطفلين معك ظننتهما في أمان، ولكن كان عليّ أن أكون أكثر حكمة نظراً لسجلك الحافل حتى الآن.

قال ذلك ساخراً، فشحب وجه جاي. ولكن قبل أن ترد عليه، تابع يقول:

ـ لم تكتفي بما سببته هنا من تلف، فأردت إضافة تيم إلى القائمة أيضاً.

ـ ما دمت تعتبرني ذات عين شريرة إذن فكلما أسرعت بمغادرة منزلك هذا، كلما كان ذلك أفضل.

ثم قفزت واقفة باندفاع مفاجئ، فسبّب اندفاعها انسكاب فنجانها على المائدة وانسكاب الحساء على الخشب الأبيض؛ لكن جاي تجاهلته وهي تقول:

ـ سأحزم أمتعتي وأذهب.. يمكنك إحضار شخص آخر يقوم لأجلك بإصلاح المكان، فلن أبقى هنا دقيقة أخرى.

قالت مارتا: «لا قطار قبل عصر الغد، يا آنسة جاي. هناك واحد فقط

يومياً، ولا شك أنه غادر اليوم».

ـ أربع وعشرون ساعة هو ما يكفيني لكي أجفف حذائي وأضعه في الحقيبة. هذا إن لم تكن الصودا أتلفته، وفي نفس الوقت...

أخذت بأصابع مرتجفة تفك أزرار المعطف المصنوع من جلد الغنم، ثم خلعته وألقته في اتجاهه وقالت: «وفي نفس الوقت، يمكنك أن تستعيد هذا. امنح معطفك الواقي هذا لشخص آخر ليرتديه».

ثم ارتدت على عقبيها وهربت من المطبخ والدموع في عينيها وراحت تركض إلى غرفتها وإلى وسادتها الناعمة؛ المكان الوحيد الذي تستطيع فيه أن تخنق شهقاتها المعذبة.

***

www.elromancia.com

١٠ ـ ما دمت معك . . .

وقفت جاي، في الصباح التالي، تنظر إلى حذائها المطاطي دهشة . . كان الحذاء جافاً مدهوناً لامعاً.

ـ لقد غسله السيد لايل بصابون نظيف وماء، الليلة الماضية. ثم صبغه ولمّعه هذا الصباح، وبذلك لم يعد فيه أثر ضار من الصودا الكاوية.

قالت مارتا ذلك تجيب نظرات جاي المتسائلة.

ـ لم أظن أن ضميره حي لهذه الدرجة.

قالت ذلك بجفاء ثم انحنت تأخذ حذاءها، محوّلة وجهها الذي ما زال ينمّ عن حزنها العميق وقلة نومها.

ـ إنه جاف على الأقل ونظيف، لذا يمكنني حزمه مع الأمتعة.

لم تنجح في تجنيب صوتها الارتعاش، ولكن لم يبد على مارتا أنها لاحظت شيئاً لأنها تابعت الثرثرة:

ـ نار جيدة في المدفأة تجفف أكثر الأشياء أثناء الليل، هذه بذلة تيم للتزلج جافة دافئة. سيتمكن من ارتدائها حين يلعب خارج البيت.

عند ذلك دخل تيم إلى المطبخ فسمع الجملة الأخيرة، فقال:

ـ ليس لديّ طائرة ورقية ألعب بها.

قالت مارتا:

ـ لا بأس! يمكنك أن تنتقي كرة كبيرة من صندوق اللعب ثم تلعب كرة القدم مع هولي في الفناء. لن يصيبكما هناك ضرر.

قالت جاي بصوت متوتر: «ما دمت أنا غير موجودة معهما فلا ضرر

سيصيبهما».

نظرت إليها مارتا بحدة، ولكن تيم قال قبل أن تجيب:

ـ قد يصنع خالي لي طائرة جديدة هذا الصباح.

قالت مارتا: «سيكون مشغولاً بالغنم كما أظن، لقد ولد الكثير من الحملان أثناء الليل».

شعرت جاي بعرفان الجميل للحملان الوليدة، لأنها شغلت لايل في حظيرة ولادة النعاج . . وهذا ما أنقذها من محنة رؤيته أثناء الإفطار، ومن الشعور بالإذلال حين يرى عينيها المنفتختين من البكاء، والهالات السوداء حولهما بسبب الأرق معظم ساعات الليل.

قالت لتيم بحزم: «هناك كرة أو لا شيء، هذا الصباح. اذهب واختر من صندوق الألعاب، ثم عد والبس طقم التزلج. سألبس أنا هولي».

وعندما عاد تيم حاملاً أكبر كرة وجدها، قال: «هل سيتمكن خالي لايل من صنع طائرتي فيما بعد هذا النهار؟»

قالت جاي بحزم: «سيقلّني خالك لايل إلى المحطة قبل أي شيء آخر».

ـ قبل أن أقوم بأي شيء آخر، أنوي القيام بزيارة ناثان ويلسون بشأن تنظيف النهر من الرواسب الطينية.

أعلن لايل ذلك، فارتدت جاي مجفلة ناسية ما يبدو على وجهها من علائم الحزن والبكاء . . رأته واقفاً عند عتبة الباب. وبدا مرهقاً متعب العينين من السهر مع النعجات التي كانت تلد، ولكن كان فيهما عزيمة صلبة وهو يضيف بشكل لا يقبل التسوية:

ـ العمل في النهر قد تأخر مدة أطول مما يجب، ولا يحتمل أي تأخير آخر الآن.

قالت بنفس العزيمة وهي تواجهه: «يمكنك أن تقلّني إلى المحطة في طريقك لرؤية ناثان ويلسون».

في هذا الوقت كانت مارتا تقول للطفلين أن يخرجا ويلعبا بالكرة.

لم ترهما يغادران المطبخ، لأن أفكارها تركزت على لايل والصراع بين الإرادتين. كانت نظراتهما تشتبك كسيفين مسلولين، كما كان الجوّ بينهما يهتز بتوتر لا يطاق.

قالت وعيناها تتحديانه أن يرفض:

ـ لا يمكنك أن ترفض إيصالي إلى المحطة في طريقك.

ردّ عليها بخشونة: «المحطة تقع في الاتجاه المضاد لمنزل ناثان ويلسون، ثم هناك فيض من النعاج التي قد تلد في أية لحظة. ليس لدي وقت للقيام برحلة لا ضرورة لها».

رفض طلبها بصفاقة... نظرت إليه غير مصدقة، وقد تورد وجهها وتألقت عيناها غضباً:

ـ لقد تأخر حديثك مع ناثان زمناً طويلاً بحيث لا تشكل نصف ساعة أخرى من التأخير أي فرق... أما بالنسبة إلى النعاج، فأظن أن الراعي قادر على تدبير الأمر من دونك تلك الفترة القصيرة. ثم في أي وقت تنوي زيارة ناثان ويلسون؟

قال باختصار: «الساعة الثانية عشرة».

ـ حسناً.. إذن سأكون في السيارة الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق.

إذا كانت جالسة في سيارته، فلن يكون أمامه سوى أخذها إلى المحطة ولو للخلاص منها.

قالت مارتا: «القطار لا يتحرك اليوم قبل الثالثة والنصف عصراً، يا آنسة جاي».

ـ أفضل الانتظار في المحطة على الانتظار هنا.

وجهت جاي جوابها هذا إلى لايل بحقد:

ـ هناك على الأقل، سأرى نفسي محل ترحيب تحت سقف المحطة.

لقد خرجت عن حدها، أدركت ذلك في اللحظة التي رأت فيها ملامح لايل تتصلب. أما هي فانحبست أنفاسها متوجسة.

ابتدأ يقول غاضباً: «لا ضرورة لهذا كله...» عندما قاطعه صراخ

ثاقب من ناحية فناء المزرعة:

ـ جا... ي.

ـ إنها هولي.

نسيت جاي لايل ونسيت حزم أمتعتها ورحلتها إلى المحطة.. جرف الرعب البادي في صرخة الطفلة كل المشاعر المختلطة التي تتملكها، غير تارك سوى الذعر البالغ الذي أسرع بقدميها نحو باب المطبخ دون وعي.

ـ أنا قادمة.

كانت جاي سريعة ولكن لايل وصل إلى الباب قبلها، مندفعاً نحو جدار الحديقة الذي يفصلها عن جدار المزرعة حتى قبل أن تصل جاي إلى عتبة الباب. قفز فوق الجدار في الوقت الذي وصلت هي إليه راكضة ثم وقفت مستندة إلى حافته تنظر برعب إلى منظر الطفلين يركضان بفزع بالغ هرباً من طير ضخم ثائر كان يلحق بهما ماداً رقبته وهو يزعق مهدداً بصوت حاد.

ـ أمسكي بها.

حمل لايل هولي وهي تصرخ، يناولها لجاي من فوق الجدار فأخذتها بين ذراعيها. أما هو فانحنى نحو الطير الثائر وأخذ يطرده ماداً ذراعيه يوجهه ناحية المخزن.

كانت الطفلة تجهش بالبكاء: «كان يريد أن ينقرني بمنقاره».

قال تيم متباهياً بعد أن تلاشى الخطر واستعاد شجاعته: «لم يستطع أن يلحق بي».

وقالت مارتا متذمرة: «ذلك الطير المتوحش، توعدته ذات يوم بأن أسلقه في القدر، إنه عنيف كالكلب».

قال لايل: «إنه نافع لأن بإمكانه حراسة الفناء كأي كلب».

ثار غضب جاي التي رأته يتقبل ذلك بهدوء رغم ذعر الطفلين، فصرخت فيه دون وعي:

ـ ضع له قيداً، إذن، كالكلب إذا كنت ستحتفظ بهذا المخلوق...

فقال: «إنه طير بين البط والأوز».

ـ تتهمني بأنني لا أوفر حماية كافية للطفلين. لماذا لا ترى نفسك؟ أولاً، كاد تيم يغرق في بحيرة اعترفت أنت نفسك بأن ليس لوجودها ضرورة، والآن لن يتمكن الطفلان من اللعب في الفناء بأمان دون أن يهاجمهما هذا المخلوق الذي ينبغي أن يُسلق في قدر الطهي.

ـ لو كنت أعلم مسبقاً أنني سأتحمل عبء ولدين صغيرين، لاتخذت احتياطاتي. هذا الطير يمكننا حبسه حتى يعود الطفلان إلى والديهما، أما البحيرة فهي سبب رغبتي في زيارة ناثان ويلسون العاجلة.

قال ذلك غاضباً، فتوترت شفتا جاي وقالت بعناد:

ـ تأخير نصف ساعة تقلّني فيها إلى المحطة لن يشكّل فرقاً يُذكر. على كل حال، بدأ المطر يهطل، وهذا يعني أن على هولي وتيم البقاء داخل البيت بقية الصباح.

وأشارت إلى الطفلين للدخول قائلة:

ـ أدخلا بسرعة قبل أن تبتلّ ملابسكما.

ثم نظرت إلى لايل قائلة بحزم قبل أن تدخل معهما:

ـ سأكون في سيارة «الرانج روڤر» الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق، جاهزة للذهاب إلى المحطة.

ثم أسرعت خلف الطفلين قبل أن تترك له مجالاً للجواب.

كان أمامها ساعة عليها أن تنهي بها حزم متاعها. في أي وقت آخر، كان بإمكانها أن تجهز نفسها بأقل من ساعة بكثير، لكن ذهنها هذا النهار رفض العمل. وضعت فردة حذاء في الحقيبة، ولم تجد الفردة الأخرى... ثم وضعت ثيابها بلا نظام في الحقيبة، التي لم تستطع إغلاقها رغم اتساعها. بعد ذلك ألقت نظرة ساخطة على ساعتها، ثم نزلت بسرعة إلى المطبخ تفتش عن فردة الحذاء المفقودة.

ـ لا تدعي الطفلين يعيقانكِ يا آنسة جاي.. أرسليهما إليّ في المطبخ.

قالت مارتا ذلك بعدما رأتها مشوشة حائرة فأخطأت فهم السبب.

أجابت جاي وهي تلتقط فردة حذائها التي وجدتها في زاوية المدفأة:

ـ الطفلان ليسا معي، ظننتهما معك هنا.

قطبت مارتا جبينها:

ـ والآن، عليّ أن أذهب للتفتيش عنهما... لقد خرجا من المطبخ منذ أكثر من نصف ساعة.

ـ ليسا في الطابق الأعلى، وإلا لرأيتهما.

كان عليها أن تصعد إلى غرفتها لتنهي حزم أمتعتها.. وهناك في الغرفة اضطرت إلى إعادة وضع ثيابها في الحقيبة بشيء من التنظيم المعتاد... وهكذا أفلحت في إغلاقها دون جهد كبير، ثم ارتدت إلى الخزانة لتخرج معطفها، فتوترت شفتاها لأنها رأت معطف جلد الغنم معلقاً بجانبه. لا بد أن لايل وضعه هناك أثناء وجودها خارج الغرفة.

لن تزعج نفسها بأخذ هذا المعطف معها... أغلقت باب الخزانة بعنف وبداخلها المعطف الكريه، ثم فتحت الباب وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

بادرتها مارتا بالقول وهي تنزل إلى المطبخ:

ـ لا أدري أين ذهب الطفلان يا آنسة جاي، لم أعثر عليهما في أي مكان.

ـ لا تبحثي عنهما لأجلي يا مارتا، فمن الأفضل أن أذهب دون أن أودعهما لئلا يتكدّرا.

وكان ذلك يكدرها هي بكل تأكيد، تابعت تقول:

ـ سأضع حقيبتي في الرانج روڤر ثم أعود إليك لأودعك.

ثم أسرعت خارجة قبل أن تنهمر دموعها، واتجهت إلى السيارة الواقفة في الفناء.

وجدتها مقفلة.

وضعت حقيبتها على الأرض، ثم أخذت تجذب باب السيارة بعنف بكلتا يديها، وعندما لم يفتح الباب شرعت بالتلفظ بكلمات نابية.

ثم رأته قادماً، فبادرته بمرارة: «يا لها من لعبة دنيئة قذرة»!.

ـ لن آخذ السيارة هذا النهار، لأنني قررت الذهاب لزيارة ناثان ويلسون غداً بدلاً من اليوم.

كان لايل يرتدي ثوب العمل، مثبتاً بذلك عزمه على البقاء في المزرعة، فأخذت جاي تحدق إليه غاضبة غير مصدقة.

ـ لقد تعمدت هذا العمل.. إنك تعمدت إبقاء السيارة هنا رغم علمك بمجيئي.

قال بهدوء: «سبق أن أخبرتك بأن ليس في نيتي أخذك إلى المحطة اليوم».

ـ وأنا أخبرتك بأنني عازمة على السفر بقطار بعد الظهر.

ـ أنا لا أمنعك من ذلك.

شعرت بشيء في داخلها يكاد ينفجر: «أنت... أنت.. إنك تعلم أن من المستحيل علي الذهاب إلى المحطة مشياً حاملة حقيبتي».

صاحت به وهي ترتجف غضباً ويأساً. لكن ذلك كان كالطرق على الصخر، فعندما يتخذ لايل قراراً، يستحيل أن يستطيع أحد إثناءه عنه.. نظرت إليه وشعرت بدافع يدفعها لرفع حقيبتها وضربه بها لعدم اكتراثه هذا...

ـ هل تعرف أين ذهب تيم وهولي يا سيد لايل؟ لم أعثر عليهما في أي مكان.

كان في استماعها إلى صوت مارتا ما اخترق ضميرها، وبدّد الغضب الذي أعمى بصرها. وتيقظ ذهنها حين أضافت مارتا تقول بقلق: «لقد اختفيا منذ ساعة تقريباً».

قال لايل: «ربما ذهبا إلى المخازن ليلعبا».

ـ لا، أنا واثقة من أنهما ما زالا في المنزل.. لقد خافا من الطائر خوفاً يمنعهما من الخروج ثانية ليلعبا. لكنني ناديتهما عدة مرات دون جواب.

قالت جاي: «ربما بلهوان بشيء وجداه فنسيا الوقت»

لكن مارتا لم يبد عليها الاقتناع، وأجابت بمنطق لا يقبل النقاش: «لم

يحدث أن تخلفا قط عن وجبة الساعة الحادية عشرة، وهما يعلمان أنني سأصنع اليوم كعكاً بالشوكولا.. لا أفهم».

ـ سآتي معك وأساعدك في البحث عنهما.

لم يكن بإمكان جاي مغادرة المنزل وهي تعلم أن الطفلين ضائعان.

سمعت صوت خطوات لايل خلفها. ولكنها أرغمت نفسها على عدم الالتفات إلى الخلف، وحدثت نفسها بأنها ستذهب للتفتيش عن الولدين في الاتجاه المعاكس لاتجاه لايل، ثم التفتت خلفها رغماً عنها عندما سمعت شيئاً ثقيلاً يرتطم بمائدة الطعام في المكتب: حقيبتي؟

لقد أحضر لايل لها حقيبتها من حيث تركتها بجانب السيارة. قرر، بكل غطرسة، عدم سفرها لأنه لا يريد أن يأخذها إلى المحطة.. تورد وجهها لوقاحته هذه، ونظرت إليه بعينين ملتهبتين.

قالت بغضب: «لقد تركت حقيبتي بجانب السيارة لكي أدخلها إليها عندما أذهب إلى المحطة».

قال بلهجة منطقية: «بللها المطر».

أنبأتها لهجته بصراحة أن ليس في نيته فتح السيارة ليضع حقيبتها داخلها حتى تجف، فتنفست بغيظ بالغ.

ـ ليتني أعلم أين ذهب الطفلان! تيم، هولي، أجيباني حالاً!

كان هذا صوت مارتا التي عادت إلى المطبخ فأسكت القلق البادي عليها جاي عن التفوّه بكلمات غاضبة. سحبت نفساً عميقاً وقالت بصوت أقرب إلى الطبيعي:

ـ إذا كانت الكرة ما تزال معهما، الأغلب أنهما يلعبان بها في الرواق الطويل بجانب قاعة الطعام حيث المكان فسيح.

قالت مارتا: «لقد ذهبا فعلاً إلى هناك، ولكنهما تركا الكرة في الزاوية.. سمعت تيم يقول شيئاً عن لعبة الاختباء».

الاختباء! انقبض قلب جاي لهذه الكلمة البريئة، «ميلبول هال» منزل قديم، يحتوي على خزائن وصناديق عميقة في غرف كثيرة، وهي تشكل

أمكنة مثالية للاختباء. كان ثمة صندوق وخزانة من ذلك النوع في المكتب آخر الرواق.

ـ المكتب بسرعة.

نطقت هي ولايل بذلك في نفس الوقت. منحها هذا التوحّد بينهما راحة غير متوقعة ورأته يمسك بيدها يجذبها معه نحو المكتب. لم تكن بحاجة إلى من يدفعها لمرافقته، لأن قدميها كانتا وكأنما نبت لهما جناحان لتتناسبا مع خطواته الواسعة، ثم اندفعا معاً من باب المكتب.

ـ اذهبي أنت إلى الخزانة أما أنا فأفتح الصندوق.

ارتدت جاي بساقين مرتجفتين نحو خزانة الجدار الكبيرة.

قال لايل: «إنهما ليسا هنا».

تملكها شبه إغماء، وأظلمت الغرفة حولها.

ـ ولا هنا.

تركا معاً غرفة المكتب هارعين إلى قاعة الطعام.

ـ لقد كانا هنا.

كان هذا واضحاً من تناثر أوراق دفتر تخطيطات جاي التي نظمتها بكل عناية، والتي نسيتها على المائدة المستطيلة. أتلفت خربشة هولي رسمها التخطيطي الأنيق كما طمست معظم القياسات المسجلة بعناية فائقة، لكن بدلاً من الشعور بالغضب كادت تبكي ارتياحاً لهذا الدليل.

رفعت صوتها على الفور منادية: هولي..

ـ هس.. لحظة، أصغي.

همس لها بذلك وهو يضع إصبعه على شفتيها.

تعلقت بذراعه وقلبها ينبض بقوة تقرب من الألم.. كانت تشعر بدقات قلب لايل من خلال ثوب العمل الأزرق. رفعت وجهها إليه بصمت وفي عينيها سؤال لم تجرؤ على النطق به.

ـ «هس»! مال برأسه إلى جانب مرهفاً سمعه.

ـ جا.. ي.

كان الصوت من الخفوت، بحيث لو كانا يتحركان في أنحاء الغرفة لما سمعاه.

شهقت جاي: «إنه تيم».

رفع لايل صوته: «تيم، أجبني. استمر في النداء».

لا بد أن تيم سمع وفهم، لأن الصوت الخافت تضاعف وانضم إليه الآن صوت طرق.

ـ ليس هنا سوى خزانة واحدة، وقد نظرنا فيها.

ـ هنالك المدخنة، إن في جدارها حوافٍ كانوا يستعملونها ليصعد عليها الولد الذي ينظف المدخنة.

ركع على ركبة واحدة على عتبة المدفأة، وأخذ يمعن النظر في الفجوة المظلمة ثم نادى: «تيم».

لكن خشخشة السخام كانت الجواب الوحيد.

عاد يقف على قدميه قائلاً: «لا أستطيع رؤية شيء.. المدخنة مسدودة بأكوام أعشاش العصافير، عليّ أن أذهب لأحضر مصباحاً يدوياً».

خرج من الغرفة فأحدق السكون بجاي بشكل مهدِّد، ولم يكن يخترق هذا السكون سوى صوت طرق خفيف مستمر.

ـ تيم.. أين أنت.. أجبني!

بدا وكأن صدى الطرق يتجاوب في أنحاء الغرفة، فنظرت جاي حولها بعينين يائستين: «تيم».

جالت في نواحي الغرفة منادية، مصغية، محاولة أن تجد مصدر الطرق.

عاد لايل حاملاً مصباحاً يدوياً وهو يسألها:

ـ أما زلت تسمعينهما؟

فأجابت باكية: «نعم. لكن الصوت يبدو وكأنه قادم من كل مكان في نفس الوقت».

سار نحو المدخنة وأرسل ضوء مصباحه القوي إلى جوفها المظلم.

قال يحذرها بحدة وهي تتقدم لتقف معه:

ـ حاذري من خشب الغرفة المحترق، فقد يدخل إبهام قدمك جوفه إذا لم تنتبهي إلى خطواتك.

لكن إبهامها دخل في الخشب فتعثرت في سيرها. ولكي تجنب نفسها السقوط، تمسكت دون وعي بجانب البطانة الخشبية المتفحمة التي تقوست إلى الخارج بعيداً عن الجدار. فتهشم هذا تحت ثقل وزنها محدثاً قرقعة عالية سقط معها إلى الأرض أما هي فاندفعت إلى الأمام بعد انهيار ما كانت تستند إليه.

أنزل لايل مصباحه وجذبها إليه يوقفها على قدميها بفروغ صبر:

ـ أما قلت لك حذار.. قفي دون حراك حتى أنتهي من فحص المدخنة. ليس لديّ وقت أهتم فيه بالأمور الطارئة.

ـ لايل، أنظر!

لأول مرة، لا تتأثر جاي بانتقاده.. لأول مرة لم تهتم باتهامه لها بالإهمال وإضاعة وقته.

قال وعيناه تتابعان فحص المدخنة: «والآن ماذا»؟

قالت وقد فرغ صبرها هي الأخرى: «دع المدخنة الآن». وأمسكت به بلهفة تبعده عن المدخنة:

ـ انظر إلى الجدار. لا، هناك حيث البطانة الخشبية ساقطة عنه.. إنه وشاح تيم!

وأشارت بإصبع مرتجفة إلى «شراريب» صوفية قرمزية وبيضاء بارزة، من بين كتلتين عريضتين من حجارة الجدار التي كانت مختفية خلف خشب متباعد.

أخذت تفرك عينيها لتتأكد من أنهما لا تخدعانها...

ـ هذا الوشاح يبدو وكأنه نابت من الحجارة.

ـ باركك الله يا جاي.

تملكها الذهول لأنها رأته يمسك بها ثم يدور بها وسط الغرفة، ويعانقها ثم يعود فيوقفها على قدميها مرة أخرى، برفق هذه المرة.

ـ كنا أمضينا ساعات في البحث عن تيم وهولي لولا تعثرك بذلك الخشب.

ـ ولكن أين... ماذا...؟

تركت الارتباك يظهر في صوتها لأنها لم تجرؤ على إظهار سعادتها.

ـ هذا يعني أن الوغدين الصغيرين هما في مكان ما خلف هذا الجدار. لا بد أنهما، بشكل ما، حشرا نفسيهما في الفسحة التي خلف ذلك الخشب المتقوّس، ثم اندفعا على شيء ما في الجدار.

كانت يداه أثناء حديثه تتفحصان الحجارة، وتضغطان على ما يبدو له أنه المكان الذي يختفي خلفه الطفلان.

شهقت جاي تحذره: «حذار، يا لايل».

وفجأة، ما كان يبدو كتلة صلبة من الحجر، بدأ يتحرك إلى الداخل، دائراً، بخفة ودون صوت تقريباً، على محور مركزي. لكن لايل كان مستعداً له، فظل محافظاً على توازن جسمه.

ـ ابتعد إلى الخلف يا تيم.

هذا ما نادى لايل به الصبي بكل ثقة من خلال الفتحة الآخذة في الاتساع، ثم أخذ يوجّه المدخل الحجري المنخفض إلى أن أوقفه عندما وصل إلى وضع مركزي.

ـ خالي لايل!

ـ جاي!

اندفع طفلان خائفان قذران يرتجفان برداً، من الفتحة لتتلقاهما أذرعة لايل وجاي المفتوحة في انتظارهما.

قالت هولي وهي تجهش باكية: «كان المكان بارداً مظلماً هناك».

وقال تيم بحزن: «لقد انطفأ مصباحي وأنا أضرب به الجدار لكي تسمعاني».

قالت جاي: «لا بأس، سأشتري لك غيره».

سأله لايل:

ـ أولاً كيف دخلتما إلى هناك؟

ـ اختبأت خلف خشب الجدار، فعثرت عليّ هولي ثم تبعتني. وفجأة سقط الجدار فسقطنا نحن الاثنين في مكان غريب فيه أشياء كثيرة.

ـ الغرفة التالية التي عليكم رؤيتها هو الحمام، فأنتما بقذارة منظف المداخن.

قالت مارتا هذا وهي تدخل الغرفة بسرعة فتأخذ الطفلين إليها بعبوس لم يخدع أحداً.

قال لايل: «ظننا، في الواقع، أنهما صعدا من المدخنة، لكننا وجدناهما في فجوة في الجدار».

قالت مارتا:

ـ إذا كان مثل هذا المكان موجوداً فهذا أوان سدّه، إنه خطر.

ثم أبعدت الطفلين عنه كالدجاجة تحمي فراخها.

عندما خطا لايل داخل الفجوة، قالت له جاي متوسلة:

ـ لا تدخل يا لايل، إنه خطر كما قالت مارتا.

ـ سأحشر كرسياً في الباب يمنعه من الانغلاق.

ثم أحضر كرسياً ومصباحاً يدوياً في نفس الوقت.

قال وقد بدا على وجهه تعبير غريب جعل جاي تنظر إليه متسائلة:

ـ أريد أن أرى ما هي تلك الأشياء التي تحدث عنها تيم.

قالت بحزم: «إذا دخلت فسآتي معك».

ثم استجمعت شجاعتها ودخلت من المدخل الحجري خلفه، فاكتنفهما جوّ بارد ورطوبة عمرها سنين كادت تخنقها. ورغم عزيمتها، صدر عنها صوت ضعيف متهدج هو مزيج من الخوف والاشمئزاز.

ـ انتظريني في قاعة الطعام.

التفت لايل فرآها خيالاً بجانبه في الغرفة المظلمة.

ـ «لا»، قالت ذلك هازة رأسها بعناد، لكن يدها امتدت تلتمس يده، ثم تشبثت بها: «أريد أن أكون معك».

لم تهتم بأن يعلم هذا. كانت تشعر فقط بحاجة بالغة إلى أن تكون بجانب لايل، حتى ولو انغلق المدخل الحجري عليهما فاحتجزهما في الداخل. لم يكن يهمها شيء ما داما معاً. لقد تبددت كبرياؤها، ولم يعد عملها يهمها. ولم يعد هناك ما هو مهم سوى البقاء مع لايل. أطاعت غريزتها بشكل أعمى وهي تتقدم مقتربة منه لدرجة لم تستطع معها أن ترى تألق عينيه وهو يحني رأسه لينظر إليها، متمعناً في معالم وجهها الباهتة تحت كتفه.

شهقت قائلة: «المكان بارد مظلم، كما قالت هولي».

أسرع لايل يضيء مصباحه فتبدّد الضوء وكشف عن مجموعة من الأشياء.

ارتجفت جاي وهي تهتف: «آه! انظر إلى بيوت العنكبوت».

ـ لا تهمنا بيوت العنكبوت، ودعينا ننظر إلى الأشياء التي نسجت العناكب بيوتها عليها.

بدت الإثارة واضحة في نبرات صوت لايل، ثم امتدت حماسته إلى جاي جارفة نفورها من بيوت العنكبوت.

هتف جاي باشمئزاز: «يبدو وكأن هناك من استعمل هذا المكان خزانة مطبخ، ثم نسيها».

وكانت حماستها قد همدت وهي ترى أكوام الأطباق والصحون، وجرار الأشربة وأوانيها التي سوّدتها الأتربة والزمن.

ـ بل العكس.

لم تكن الحماسة خافية في صوت لايل، ثم انحنى يتناول طبقاً واسعاً بتهيب بالغ.

ـ يبدو أن أسلافي استعملوا هذه الغرفة مخبأً لهم. إن هذا هو القسم القديم من المنزل، كما تعلمين، وكانت أسرتي تسكنه أثناء فترة الاضطهاد الديني في القرن الخامس عشر. وهل من مكان أفضل من هذه الفجوات التي بنيت في الجدران لإخفاء فضيات الأسرة خلال الحرب الأهلية.

ـ فضيات؟

ثار اهتمام جاي، وأمسكت بطبق صغير رفعته إلى ضوء المصباح، ثم قالت لاهثة:

ـ التراب يغطي اللمعان طبعاً.. أتفكر في ما يعني هذا؟

رفعت إليه عينين متألقتين: «إذا كانت كل أكوام الأطباق هذه من فضة، فهي لا تثمّن، فليس هنالك الكثير من الآنية الفضية الخالصة التي كانت قبل الحرب الأهلية، فأكثر الفضيات في ذلك الحين أذيبت لمصلحة المتحاربين».

ـ أظن أن جدي، ذلك الحين، لم يكن وطنياً كما يجب. لا بد أنه فكر في خطر احتلال الجنود لمنزله، فأخفى كل نفائس الأسرة في خزانة الجدار هذه ثم سدّ المدخل بالخشب حتى لا ينكشف أمره.

ـ ثم مات أثناء القتال آخذاً معه سرّ الأسرة.

ـ لا أدري ما إذا...

تكلما معاً، ثم سكتا معاً وكل منهما ينظر إلى الآخر، وما لبثا أن انفجرا ضاحكين.

ـ صورة «فان دايك!».

نطق لايل بالفكرة التي خطرت في بالهما معاً ثم سرعان ما نفذاها عملياً فأخذا يفتشان بين الفضيات غير عابئين ببيوت العنكبوت وسحب الغبار التي ما لبثت أن جعلت وجهيهما وأيديهما بمثل قذارة الولدين.

ـ سأرى تحت هذه العوارض الخشبية.. ساعديني على رفعها. حذار، لا تسرعي. لأننا لا نريد أن نتلف الصورة هذا إن كانت موجودة.

كانت في أحسن حال من الحفظ، لأن العوارض الخشبية الخشنة حمتها، حتى من برودة تلك الغرفة الصغيرة. كانت مسنودة بجدران حجرية بالغة السماكة كمباني القرون القديمة لذا بقيت الألوان والقماش مصانة، والملامح النبيلة لصاحب الرسم الذي كان يمتطي حصاناً، ويحمل لواء في خلفية المنظر، ويحدق إليهما على ضوء المصباح اليدوي وكأنه يشكرهما

لتحريره أخيراً.

ـ إنها لوحة «فان دايك» لا شك في ذلك.

حملاها معاً ثم وضعاها على مائدة قاعة الطعام، تاركين ضوء النهار يقع عليها كاشفاً ملامح جد لايل.

هتف لايل: «انظري إلى التوقيع، إنه يماثل بالضبط ذلك الموجود على إيصال البيع».

تجاهلت جاي التوقيع وراحت تلتهم بنظراتها وجه لايل، محاولة طبع كل جزء من ملامحه العزيزة في ذهنها. ذكّرها رسمها التخطيطي التالف الملقى على المائدة بجانب اللوحة، بالأحداث المؤلمة التي أدّت إلى أزمة اختفاء الطفلين.. وذكرها بأنه ما زال لديها وقت للوصول إلى قطار بعد الظهر.

تحولت عيناه عن الصورة لتتسمرا عليها، يسألها:

ـ إلى ماذا تنظرين؟

ـ أنا... أنا..

كيف لها أن تخبره بسبب تحديقها إليه بمثل هذه اللهفة؟

ـ أخبريني.

وعندما رآها تخطو بعيداً عنه، مد يده يجذبها بحزم يعيدها إليه، ويرفع وجهها بيده الأخرى ينظر في عينيها:

ـ أخبريني.

تلاشت الإثارة من ملامحه وحل مكانها مشاعر غريبة محمومة جعلت عينيه الذهبيتين تتألقان مخترقتين أعماقها، مرسلتين طوفاناً من الخجل أغرق مشاعرها، وكأنهما تبحثان عما هو أغلى من كل الكنوز الدنيوية... عن سؤال يختلف عن السؤال الذي نطق به؟ انسدلت أهدابها الطويلة كهلالين داكنين على وجنتيها اللتين كان الاحمرار يتناوب عليهما، كاشفاً عن اضطراب ذهنها الذي كان يتنقل هنا وهناك، مفتشاً عن جواب يرضيه، جواب ينبثق من عقلها، جواب لا تجرؤ على النطق به...

وأخيراً، قالت متلعثمة:

ـ كنت . . . كنت أحاول أن أرى إن كنت تشبه جدك.

ـ وهل أشبهه؟

ما زالت ذراعاه تحتضنانها، وها هو يرفع وجهها إليه ليجعل هربها منه مستحيلاً، أما عيناها فنظرتا إليه بضراعة تناشدانه بأن لا يسألها مرة أخرى.

عاد يسألها برقة: «هل أشبهه؟»

لا تعلم، فهي لم تكد تنظر إلى صورة ذلك الوجه. كما إنها لا تستطيع رؤيته الآن، لأن وجه لايل كان منحنياً فوقها ماحياً كل شيء آخر أمام ناظريها. . تحركت شفتاها متمتمة بلهفتها وحنينها، متهربة من عدم يقينها المدمر الذي يمزق قلبها، ثم سرى وهن غريب في أطرافها لأنها راحت تتجاوب مع ضغط ذراعيه.

تأوهت هاتفة باسمه: «لايل. . .»، ثم سرعان ما سحقتها ذراعاه تحضنانها وتقطعان تأوهها، وكأنه يخبرها بعناقه هذا أنها فهمت سؤاله، ومع ذلك تبحث عن جواب بجوع محموم لا تكفي الحياة كلها لإشباعه.

تأوه قائلاً: «أحبك. . . أحبك» فارتفعت ذراعاها بقوة جديدة، قوة الثقة التي جعلتها تمسك برأسه لتقربه منها.

ـ لا تتركيني يا جاي! لا ترحلي! إنني أحبك ولا أستطيع العيش من دونك.

كانت كلمات ضارعة متهدجة لم تعرفها من لايل من قبل، هذا الرجل القوي الواثق من نفسه والذي ظنته يوماً، متغطرساً، هذا الرجل يتضرع إليها لتقبل بالشيء الوحيد الذي يمنحها السعادة الكبرى!

ـ جاي، حبيبتي، قولي إنك ستتزوجينني. . أخبريني بأنك تحبينني.

كان يتوسل إليها وقد أصبح وجهه الذي يشبه، بشكل غريب، ذلك الوجه المرسوم في اللوحة الملقاة بجانبهما، متوتراً من اللهفة وعدم اليقين.

ـ وأنا أحبك.

جاء جوابها منخفضاً هامساً لم تستطع التفوه به.

عادت تهمس بسعادة وهي ترفع عينيها إلى عينيه بخجل: «أحبك».

كانت عيناها تسطعان حباً، وراحت ذراعاه تشتدان حولها تضمانها إليه وقد فاضت عواطفه المكبوتة تغمرهما معاً وتحملهما إلى قمة سعادة لم تحلم جاي قط بها من قبل.

وأخيراً، مالت برأسها على كتفه، وما زالت عيناها مرتفعتين إلى عينيه.

قالت بلهجة ملؤها السعادة، وقد اكتشفت قذارته:

ـ أنت قذر.

ـ وكذلك أنت.

ـ أنت متعب.

لم يستطع التراب أن يخفي خطوط الإنهاك المرتسمة حول عينيه.

تابعت تقول: لقد سهرت طوال الليلة الماضية على النعاج التي كانت تلد.

قال باسماً: «كان بإمكاني ألا أسهر عليها، إذ بإمكان الراعي أن يقوم بذلك بشكل جيد».

ـ لماذا إذن. . .؟

ـ لم أستطع أن أنام لكثرة تفكيري في أنك سوف ترحلين.

ـ أبداً. . . أبداً. . .

ختمت وعدها هذا بالطريقة الوحيدة التي تقنعه، وذلك بقولها:

ـ سأرتدي معطف جلد الغنم الذي اشتريته لي الآن. لقد أعطيتني إياه لأرتديه طوال بقائي هنا. أليس كذلك؟

ـ كنت أعني أن ترتديه دائماً.

نظرت إليه مجفلة: «حتى في ذلك الحين كنت تعلم؟»

ـ أحببتك منذ اللحظة التي وقعت عيناي فيها عليك. . كنت واثقاً من ذلك في الليلة التي ضربت فيها الصاعقة المنزل.

ـ تركت المنزل يحترق أثناء إيقاظك لي!

ـ كنت أثمن عندي من المنزل، وستكونين كذلك دوماً.

ثم انهال عليها بقبلات غاضبة على وجهها وعينيها وشعرها.

ـ لقد ضربت الصاعقة مرتين تلك الليلة، مرة المنزل، وأنا في المرة الثانية.

بل كان ذلك ثلاث مرات، ولكن هذا كان سرّ جاي الثمين، وهو ما عرفته فيما بعد، في تلك الليلة، عند نار المدفأة، في نهاية النهار.

ثم أضاف: علينا أن نفعل شيئاً لنبقي هذه الغرفة الصغيرة في الجدار، آمنة.

أشرق وجهها لكلمة (نفعل) بصيغة الجمع. قالت:

ـ يمكننا إخراج المحتويات كلها إلى خارج الغرفة لوضع قائمة بها، ثم نرسل الفضيات واللوحة إلى تشستر لتنظيفها وإصلاحها، ثم نقفل المدخل إلى حين رحيل تيم وهولي.

ـ نريد حلاً أكثر دواماً من ذلك لنفس السبب الذي يجعلنا نفرغ بحيرة المطحنة.

أعلن هذا كأنها حقيقة مملة، ولكن نظرته كانت توجه إليها سؤالاً عن نفسها. وهذه المرة لم تتردد جاي في إجابته وقد صبغ الاحمرار وجهها وعنقها حين اخترق ما يعنيه مفهومها. قالت بحزم:

ـ سنجعل تلك الأمكنة آمنة لأنها، إذا بقيت، فستبقى دوماً مصدر خطر للأولاد.

أولادهما... هي ولايل، أبناؤهما المغامرون، كان هذا منها وعداً للمستقبل التهبت له عيناه، وجعلت ذراعيه تشتدان حولها..

قال: «بعد إصلاح الصورة، ستكون هدية زفافنا مني إليك».

مضت لحظات طويلة قبل أن يتمكن واحد منهما من تذكر الصورة.

ـ ولكن، يا لايل.. إن صورة بريشة «ڤان دايك» هي مسؤولية كبيرة، وأنا أفضل أكثر «لايل غاونت هذه الأيام».

قال لها برقة: «لكنك سبق أن تحملت مسؤولية أكبر، مسؤوليتنا نحن الاثنين، أنا واستمرار ذرية آل غاونت».